نادي تبوك الأدبي
Tabuk Literary Club

عادل عبدالمجيد المالكي

# شبابيك
## في بلاد حزينة

رواية

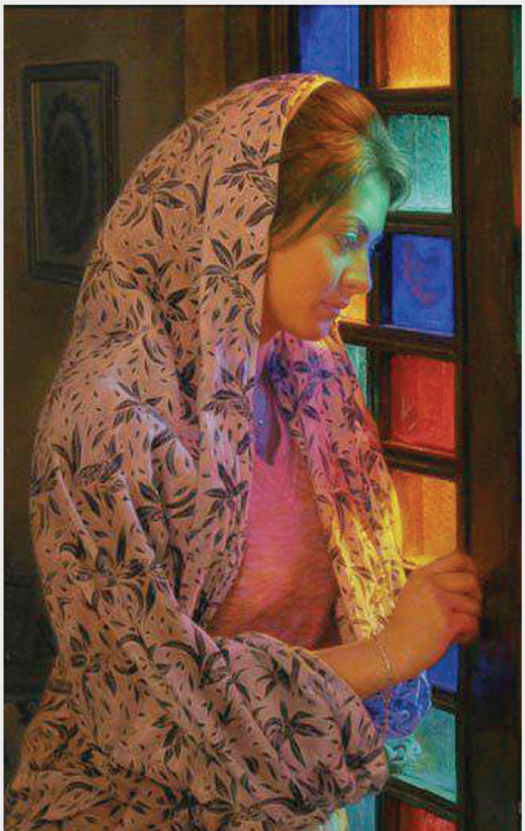

مؤسسة الانتشار العربي

# شبابيك في بلاد حزينة

# شبابيك في بلاد حزينة

عادل عبد المجيد المالكي

# إهداء

أمي وأبي،

اللذان عذّبْتهما بحماقاتي،

وعذّباني بعطفهما..

كيف أهدي

إليكما مجرد كتاب

بعد أن أهديتماني الحياة؟

إلى الغرباء الذين يشاركوننا النسيان؛

إلى التجاعيد الحزينة التي تسكن وجوهنا؛

إلى الراقدين تحت أتربة قلوبنا؛

إلى المنسيين في الغرفات الخلفية من ذاكرتنا؛

إلى امرأة لا أذكرها.

# (1)

كنت أتلمس طريقي إلى النور، أبحث عن نفسي، عن وجهٍ مألوف، عن شيءٍ يخلقني من جديد، أحاول أن أعيش، أو حتى أن أموت، أحاول كسر هذه الأغلال التي تحكم علي بالموت حية.

كنت أبحث عن شيء يثبت أنني موجودة، وأن هذا الشيء الذي يقبع في أضلاعي لا يزال يخفق، أفتش عني، عن كياني الذي اختطفه الآخرون مني يوم مولدي.

أبحث عن جحيم ينتشلني من جنة مجتمعي الخانقة، تلك الجنة التي ينبغي لأية امرأةٍ فيها أن تبقى أسيرة لنزوات مَن حولها من الرجال، أن تخضع لهم، أن تتشكل حياتها كما يريدون، أن تكون ظروفها رهنًا بمزاجهم المعتل، بعد ذلك ولأنها خضعت لرغباتهم يتوجونها ملكة.

لا يمكن أن يذكر التاريخ ظلًا، وُجد وانتهى وهو يعيش نصف حياة، ظلٌ لا يميزه أحد ولا يكترث

لموته أحد. لا يمكن أبدًا أن أكون على هامش الكون، أن أركض في سباقٍ للأموات، وأكتب قصتي المملة في كتاب منسي يعج بالفشل والفاشلين.

الحرية! كلمة واحدة تفصلني عن الحياة، كلمة قد تقتلني، سأصرخ باسمها، سأقف على عتبات القمر وأصرخ: أية حياة تلك التي تكون بدون حرية!؟

راجع دينك وعقلك، راجع رغباتك، انظر إلى كل شيء من حولك وفي السماء، كل شيء يصرخ باسم الحرية، فلولاها ما كان الإنسان ليكون!

أنا تلك الغريقة في بحر كل الكلمات والأوامر والفتاوى والنهي والزجر والوعظ، أنا الواقفة أرقب ماذا يصنعون مني وكيف يبنون مستقبلي دون إرادتي، كيف يجعلونني ألبس وأين أدرس ولمن أكون زوجة، أنا امرأة خلقت من ضلعه لا أستقيم أبدًا إن هو تركني وحيدة!

أنا سلمى..

ذات الوجه النحيل المائل إلى الحمرة، والملامح البسيطة، قصيرة نوعًا ما، وهادئة دائمًا، لم أكن من ذلك النوع من البنات الذي يستخدم آخر صيحات الموضة ويلطخ وجهه بالماكياج، كل شيء فيّ

كان مسالمًا، حتى قصة الشعر البسيطة التي تنحدر قليلًا تحت الرقبة، أعتقد أني جميلة، هذا ما تكرره صديقاتي على مسامعي دومًا.

كنت أعيش في أحد أحياء الرياض البسيطة، أقطع كل يوم عشرات الكيلومترات جيئة وذهابًا وحدي مع سائقي الآسيوي حيث أدرس في جامعة الملك سعود. لا شيء يميزني من بقية النساء هنا سوى أنني بنيت لنفسي عالمًا آخر أهرب إليه كل يوم لأكمل قصتي مع رجل لا أعرفه، لا يستطيعون أن يحاكموني أو يرجموني حية إن هم علموا بشأنه، فهو غير موجود، وغير حقيقي، أو أقله نصف ذلك.

كنت أراه جليًا، حروفه التي يكتب بها رسائله تشي برجل مختلف، لا يمكن إلّا أن يكون مختلفًا، لا أكثر ولا أقل، وأنا المفتونة بقصص الخيال أصبحت أساطيره تقودني إلى الواقع، إلى أعظم شيء يمكن أن أملكه يومًا، العقل!

ملعونة تلك الخرافات التي تعشش في عقول الناس والتي يتلقونها بسرور من آبائهم الأولين، تسحقنا، تفتّت مشاعرنا، تقولبنا كلنا لنكون أنموذجًا واحدًا لا تفرّد ولا تمايز فيه، تصنع منا آلات بلا

قلوب، تشحننا كل يوم بما ينبغي لنا قوله وفعله، وحذار ألا نفعل.

موبوءة تلك المجتمعات التي يتعلق فيها مصير النسوة بمدى نضج رجالها، التي تُعلق مصيري بيد غيري، فإن كان إخواني جيدين سأكون بخير، وإن كانوا سيئين سأكون في ويل وثبور، أنا لا شيء سوى بضاعة متحركة، وليمة يتخاطفها الجائعون.

تزاحمت أفكاري الهوجاء تقطع بي الطريق من بيتي إلى أحد أسواق الرياض المتناثرة، كانت نهاية الأسبوع مع صديقات الجامعة لها مذاق جميل، حيث نهرب بعيدًا عن أوجاعنا، نلقي بعتب الكون كله خلف ظهورنا ونضحك، نرسم أوهامنا معًا على الرمل دون أن نكترث للرياح، دومًا أغبط نفسي على وجودهن معي، وتسعدني فكرة أنني أنا من اخترتهن بنفسي ولم يفرضهن علي أحد، كنا ذاهبين إلى أحد الأسواق حين وجدت ورقة مدسوسة بعناية في حقيبتي.

أخذني الفضول نحوها حتى تركت صديقاتي ورحت ألتقط هذه الورقة وأقرأ:

❀ ❀ ❀

## ـ الرسالة الأولى ـ

إليك أكتب، يا رفيقة الجنون والنشوة، فقد منحني حبك كلمات لا تنفد، إليك ألقي بأقلامي ودفاتري لعلها تصل إلى قلبك ذات حلم، إليكِ أكتب، يا امرأة من سراب، وعندكِ أضع أمنياتي المؤجلة حتى يقرر القدر تنفيذها، فلتنم بهدوء.

خطا قلبي نحو السماء، ليلحق بحلمه الغائم، توارى خلف أستار النجوم ثم صنع أرجوحة عظيمة بين شمسٍ وقمر، لم يلتقيا قط، ولن يفعلا. تودّدت إلى فضاءٍ يجمعنا أن ينقل هواءها إلى رئتي، فقد أوشكت على الاختناق دونها.

كانت امرأة عظيمة، عظيمة، لم تكن تتصرف ببلاهة كبقية النساء، هي تلك الأنشودة التي تغنى بها شاعر خيالي في لحظة سكرٍ. هي سجدة في محراب الجمال.

لم تخلق من طين.

**~ طارق**



تلك هي أول رسالة أعثر عليها.

شدتني تلك الحروف الحزينة، من يكون هذا الذي يكتب لحبيبته، وهل كان يكتب لها أم عنها؟ لماذا وضع الرسالة في حقيبتي ومتى؟ هل هي مزحة سخيفة من إحدى صديقاتي؟

مضيت في طريقي وأعدت الرسالة إلى حقيبتي، ألقيت بما حدث خلفي، لا يهمني ذلك على أي حال، لدي من التساؤلات ما يكفيني، عدت إلى صديقاتي وهنّ يقُلن: «ما هذه الورقة؟».

- ليست شيئًا مهمًا.

عدت إلى البيت وحاولت نسيان أمر الرسالة، صعدت إلى غرفتي بعد يوم شاق قضيته في التسوق، تمدّدت على السرير وأنا أفكر، من يكون طارق؟ تمنيت لو أن الرسالة موجهة إلي لعلي أعيش مغامرة تنفض غبار الرتابة التي أعيشها كل يوم في هذه المدينة التعيسة.

تذكرت أن علي إكمال تقرير طلبته مني إحدى الأستاذات في الجامعة، لذا فتحت جهازي المحمول، وبينما أنا أهم بالبحث عن رسالة في بريدي الإلكتروني إذ وجدت رسالة جديدة وصلتني منذ ساعات من بريد لا أعرفه:

## ـ الرسالة الثانية ـ

«عندما تتحدد حياتك كلها بأمر واحد فعلته، يتغير الزمن، جسدي يشعر أن هذا حدث منذ ألف عام، ولكن في عقلي، كأن الأمر حدث بالأمس».

أتذكر كل شيء وكأنه حدث هذا الصباح.

كنت مديرًا عامًا لشركة ذات مستوى مميز، عملت بجد سنين حتى وصلت إلى هذا المركز، لم يكن يشغلني شيء عن العمل، ولا أحس بمتعة الحياة إلا وأنا مليء بشحنات الجهد والتعب في العمل بالشركة.

حسنًا لم أكن أعرفها. كانت موظفة بسيطة في الشركة، تعمل بشكل جيد، قمت بترقيتها ومكافأتها، ولم أكن أعلم أنها ستعطيني أكبر مكافأة في حياتي!

يقولون: أجمل حب هو ذاك الذي يأتي أثناء البحث عن شيء آخر. كنت قياديًا وأعمل بمهنية، لا أحاديث جانبية، لا أفكار منحرفة، لا نظرات مسروقة، كنت أنام في مكتبي بعض الأحيان، وأعتبر أن هذا العمل هو هدية من الله، لذا لم أعر انتباهًا لأي شيء آخر.

كنت أبحث عن الحياة، ووجدتكِ أنتِ.

لم تكوني إنسية يومًا، لقد هبطتِ من الجنة. عثرت عليكِ في غصنٍ يتدلى من أغصان الفرح، وقطفتُك لي، قبل أن أعرف أنك ثمرة محرمة.

آه يا سيدتي، كم أنتِ محرّمة، وكم كان حبكِ مفخخًا، وكم كنت غبيًا عندما تصورت أنني حصلت عليك. أنتِ كل شيء، وأنتِ لا شيء، المطر والسراب، الحياة والموت، مذهلة تفاصيلك ومحيرة، محيرة جدًا بالنسبة إلى رجل مثلي يكره الفشل، ويعتقد أن بإمكانه حساب كل شيء قبل العبث والمجازفة.

لم يكن الحب يومًا معادلة حسابية، الحب هو أن تضع حياتك السابقة على الرف، أن تقفز في بحرٍ وتجدّف دون أن تعلم ما ينتظرك على الضفة الأخرى. أن تبدأ بكتابة رواية جميلة لكن نهايتها ستكتب بيدٍ أخرى ليست يدك. الحب هو أن تكون مستعدًا للموت.

لم أكن مستعدًا للموت.

لذا جاء موتي بطيئًا بطيئًا، لدرجة أنني بدأت أفقد كل ألوان الحياة لونًا لونًا، بدأت أذوي دونك، كنت أريدك أكثر من أي شيء آخر، ولكن لم يكن

شيءٌ ليعيدك، هكذا، كنت أراك ترحلين وأنا عاجز عن إعادتك إلي.

كان الخامس عشر من سبتمبر، والجو مهيأ جدًا للنوم، لكن كل ذلك لا يمنعني من الذهاب باكرًا إلى مقر عملي ورسم تفاصيل حياتي بريشة هادئة، بيدٍ متقنة لا تترك وراءها أوراقًا ممزقة أو ألوانًا خارج الإطار.

لقد حادثتني ذلك اليوم لأول مرة، لم أكن لأنسى هذا التاريخ قط. كانت نقاشاتنا تتم بعفوية لا تنبئ بشيء.

- أود الاستقالة سيد طارق.

- ولكن لماذا؟ فأنتِ موظفة ممتازة بالشركة ولا يمكن أن أستغني عنك!

كان اللقاء الأول وداعًا، جئتُ متأخرًا في محطة حياتها، قبلتُ استقالتها وكانت ستختفي من حياتي وتنتهي قصة لم تبدأ. لكنها عادت بعد فترة تجاوزت ثلاثة أشهر، وطلبَتْ أن أعيدها إلى عملها، وفعلتُ.

لو أنني لم أفعل، لو أنها اختفت من حياتي ببساطة، ألم يكن الأمر أسهل؟ لماذا كُتِب علي أن أعيش معها ما تبقى من حياتي.. ومماتي؟

لم تكوني مميزة يا سيدتي من بعيد، كنتِ امرأة. جميلة مثقفة شاعرة، لكنك امرأة، لم أستطع تمييزك من غيرك كثيرًا، النساء يتشابهن من الخارج. لم أكن أعرف بعد أي جنون أنتِ. كنت أنساكِ بعد لقاءاتنا بخمس دقائق، أفكر فيك كشيء جميل لكنه مكرر عشرات المرات، وكنتِ أنتِ منجذبة لي، تقتربين شيئًا فشيئًا مني، ربما هو غرورك الأنثوي في إسقاطي. حسنًا لقد سقطتُ!

خبيثة هذه الحياة، هذه الخطة المتقنة للإيقاع بنا، كم من ألمٍ كان سيرحل لو أنها تسامحت قليلًا معنا؟ وكم من وجهٍ كان سيبتسم؟ ولكن الحياة ليست سوى وجهنا المألوف، نحن انعكاسها البشري فلماذا نشتمها؟ لا يسعنا الهروب من أنفسنا.

~ **طارق**

❀ ❀ ❀

قرأت الرسالة بشوق وأنا أتساءل من يكون؟ ومن تلك التي أسَرَته؟ وهل هناك من يعيشون حبًا بهذا الشكل؟ ألا يخشون أن تشي بهم جدرانهم؟ أيعقل أنّ مدينة إسمنتية كهذه قد تضم قلبين عاشقين دون أن

تغتالهما خناجر المجتمع؟ كيف يولد حبٌّ في مكان كهذا موبوء بالمحظورات؟

دارت بي أسئلة تدغدغ مشاعري الخائفة، تمزق أوصال السكون بداخلي وتنتزع الخفقة تلو الخفقة، ولكن سرعان ما طار كل شيء عند سماع صوت أخي الأكبر منذر قادمًا من بعيد وهو يتمتم بشتائم مخيفة لهذا العالم الذي لم ينصفه يومًا.

منذر هو الأخ المتشدد التقليدي الموجود في كل عائلة سعودية، الذي ينظر بتوجس إلى كل تصرف من تصرفات أخواته، لم أحببه يومًا، ولم يحببني كذلك، علاقتنا دائمًا تتلخص في الأمر والزجر فقط، لسانه السليط كان يخيفني دومًا ويجعلني أكاد أمقت الرجال.

كنت أعود كل يوم لأفتح جهازي المحمول وأتفقد بريدي الإلكتروني الذي وصلتني عبره رسالته، لم أفهم ماذا تعني كثيرًا، لكني أحسست أن مرسلها تعمد إرسالها إلي، انتظرت أن تأتيني رسالة منه ولم يفعل، مر أسبوعان ولم أجد رسالة تملأ بريدي الخاوي!

# (2)

اشتقت إلى سماع صوتٍ لم أسمعه قط، وقد لا أسمعه أبدًا.

اشتقت إلى حياة لم أعشها قط، اشتقت لأن أكون في خضم المعركة الإنسانية التي يعيشها ملايين البشر.

أريد أن أكون حرة، أن أقرر ماذا ألبس، أن أغطي وجهي أو لا أفعل، أن أفكر كما أريد أنا لا كما ينبغي لي أن أفكر، أريد أن أختار! أن يكون لي حق الاختيار يعني أن عقلي يعمل كما أراده الله أن يعمل.

ولكني تلك الكسيرة الخانعة تحت سلطة الآخرين، أنا نتيجة لمئات السنين من الآثام، لا يمكنني أن أقرّر فجأة أن أكون حرة، يجب علي أن أختار بين الحرية والحياة، اختياري لحريتي يعني أني معرضة حتمًا للقتل. لا أريد الموت الآن.

كانت الأيام تصرعني كل يوم، أزداد ذلًا كل

يوم، أزداد حنقًا ونفورًا، لماذا خلقت لي هذا العقل يا الله إن لم يكن من حقي استعماله؟

كنتُ الثالثة بين أربع بنات، تكبرني أختان وثلاثة إخوان، كلهم متزوجون، لم يبقَ غيري وأختي الصغيرة مها، لذا نحن عرضة دومًا للشك في أفعالنا، لم يكن يُسمح لنا بفعل الكثير من الأمور، لذا كنا نقوم بفعل كل الأمور الخاطئة سرًا.

مها، أصغر العنقود، هي الوحيدة من بين أخواتي التي قد أشاركها في أسراري، وهي تفعل بالمثل، لا يفصل بين عمرينا سوى عامين، تشبهني كثيرًا إلّا أنها أكثر امتلاءً وأكثف شعرًا وأكثر مرحًا، دائمًا تحاول الفصل في الشجارات المتكررة التي تقع بين أبي وأمي.

أبي من الطراز القديم، ذلك النوع الذي يريد لكل شيء أن يسير بتقليدية ودون «وجع راس»، لم أكن كثيرة الجدال معه، فإذا رغبت في شراء شيء أو في الخروج من المنزل أقنعت أمي لتتحدث معه بالأمر، وغالبًا ما كانت تنجح.

كان بيتنا الكبير يظل ممتلئًا طوال أيام الأسبوع، إخواني وأقاربي وأبناؤهم يجعلون من الصعب علي أن

أحظى بلحظات هادئة أو مريحة، لذلك كنت أهرب دائمًا إلى غرفتي الصغيرة، تلك الغرفة التي تحميني من الجميع، هنا أستطيع أن أفعل ما أشاء دون أن أراقب ردة فعل أحد، أستطيع أن أغني وأرقص، وحيدة، أعيش حيوات وهمية على الإنترنت دون خوف من العار. لكني ما أن أفتح ذلك الباب حتى أعود إلى الحياة، إلى السير خلف الرجال، إلى الطبخ، إلى تلقي المواعظ، إلى الملابس الفضفاضة، إلى السمع والطاعة.

ما زلت أذكر تلك الرسائل التي وصلتني من الغريب المجهول، لا أعلم لماذا تحرّك شيء ما بداخلي بعد قراءتها، ليتني أعرف مصدرها، أو لماذا وصلت إلي. قد تكون وقعت في اليد الخطأ، وهذا ما بدأت أقتنع به، رغم غرابة الأمر.

كنا في بداية فصل الشتاء، مطر خفيف بدأ بالنزول على غير العادة، انتهيت من أعمال البيت الكئيبة، ودلفت إلى غرفتي بثقل، أحسست بالحمى تأكل عظامي كعادتها في زيارتي كل فترة، انزويت في جانب السرير، أيقظت جهازي المحمول، ويا للعجب! وجدت رسالة جديدة تنتظرني!

❀ ❀ ❀

## ـ الرسالة الثالثة ـ

أتذكرين يا امرأة المجهول كيف كانت حياتك من قبلي؟ لم تك شيئًا، ولن تكون بعد ذلك، لا يمكنك إنكار ذلك، أنا وهجك ونورك، أنا عالمك المنشود، أنا أجمل شيء مرّ بحياتك.. هكذا كنتِ تقولين لي دومًا.. أليس كذلك؟

أتذكرين كيف كنتِ تحتالين علي عندما كنا نعمل معًا؟ كنت تفتعلين الحوارات المملة معي فقط لنقترب أحدنا من الآخر، حسنًا أعلم أنك لم تكوني تحبينني وقتها، لكن شيئًا ما كان يشدّك نحوي، وكأن القدر يقرّبنا حتى إذا التصقنا فلا فراق.

لقد عملت سنتين لدي، وكنت أجدك فتاة مميزة، ثم رحلتِ كعادتك.

رحلتِ يا تَرَف.

رحلتِ بعيدًا جدًا بعد وفاة أحد أفراد عائلتك، هكذا ببساطة كنتِ تجيدين الهروب، حسنًا أتعلمين ماذا؟ لم أكترث كثيرًا لرحيلك، لم يشغلني الأمر سوى بضع ساعات حتى أوجدت بديلًا لك. هكذا كنتِ بالنسبة إلي، موظفة.

كان لينتهي كل شيء لو أنك لم تعودي ثانية،

كنت سعيدًا، لا أهتم بجنون يربط بين شخصين يسمونه حبًا، لا يشغلني حقًا ولا أضع له مكانًا في هذا الزخم الهائل من الحياة.

كنت أرى كل شيء مختلفًا، صراعًا للبقاء ولحفر اسمي في صفحة ما في كتاب التاريخ، أود أن أكون شيئًا يخلده الزمن، لا أحب أن أموت مجهولًا، أخشى وحشة النسيان، أرفض أن يمر أحد بجانب قبري ولا يتوقف لحظة أمامه.

لهذا كنت أنساكِ، أنساكِ لكي يتذكرني أحد.

أنساكِ كثيرًا حتى صفعني الزمن بكِ.

لم أنسَ يومًا عودتك، حيث تشعلين كل شيء بوجودك، وكأنك كنتِ هنا منذ قرون، تعودين فترسمين صورة أخرى لي، هذه المرة ظهرتِ صديقة.

صديقة تأتي فجأة وترحل فجأة، لا وعود ولا اعتذارات، لا تضربين موعدًا لطباعي، أنا الذي كنت أصادق بدقة، أحب بدقة، وأرحل بدقة. لم يكن يعجبني ذلك كثيرًا، لا أحب صداقة مزاجية. لهذا كنت دومًا حذرًا في اختيار أصدقائي.

لا أحب صداقتك، تلك الضحكات المنبعثة من

قلبين عابثين يحتالان على حتمية الكون، ويسرقان سعادة لم تخلق لأحد، لهذا كنتِ صديقة سيئة.

كنتِ تقتربين حتى تصبح المسافة بين قلبينا لا تكفي للأصدقاء، ثم تبتعدين حتى لا يعود بيننا سوى ذكريات مشوّشة ليست ذات طعم أو رائحة، كنتِ تختارين كيف تريدين أن تبقي وكنتُ غبيًا لأعطيك هذا الحق في تقرير مصيري معك.

كان يومًا مميزًا يوم 9 ـ 9 ـ 2009، طلبتِ مني أن أكتب لك شعرًا حتى يبقى شيءٌ من ذلك اليوم في ذاكرتك ولم أعترض، لكني لم أكتب عنك، كتبت شيئًا لم تفهميه، يشبه الشعر وما هو بشعر، كتبتُ عن الحياة، وقلتِ مجاملة: رائع.

سألتِني يومئذ أين أنا من الحب، تلكأت قليلًا ثم قلت:

- الحياة مليئة بالحب، لذا أنا مرتم داخل ظلمات الحب، لا تذهبي بأفكارك بعيدًا فلكل منا تعريفه الخاص للحب.
- إجابة دبلوماسية.
- أراها صريحة.
- بل مُضلّلة!

- هكذا هم الشعراء ضالون مضلون!

كانت كلماتنا بسيطة لكنها تشي بكذبات صغيرة لم تستطع البقاء مخنوقة، سألتها إن كانت قد أحبت فأجابت بنعم.

- لم يكن حبًا بالمعنى الحرفي، كنت معجبة به، أعيش معه قصة خيالية لا يعلمها ثم اكتشفت بمرور السنين أنها وهم.
- ولكنك تقولين سنوات، هل من المعقول أن تظلي سنوات دون أن تخبريه، ثم تنسحبين بهدوء؟
- لن تفهم ما أعني. أخبرني عنك.
- أما أنا فنعم، وقصتي قد انتهت بفشل مدوّ لكنه مُرضٍ، فلا تسألي عن قصتي ربما أقولها ذات يوم.

كنت دائمًا أؤمن أن أول قلبٍ تقع فيه يشبه كثيرًا أول وطنٍ مارست فيه طقوس الحياة، لا يمكنك إلا الحنين إليه، سيظل جزء منه فيك مهما رحلت وادعيت غير ذلك.

~ **طارق**

لم أكد أنتهي من القراءة إلا وأنا أسمع صوت طرقات خفيفة على زجاج نافذتي، اقتربت، فاختفى الطرق برهة ثم عاد، فتحت الشباك، التفتّ يمينًا وشمالًا، لم أرَ شيئًا، أغلقت الشباك وتدثّرت في سريري بخوف، أغمضت عينيّ لأنام وتذكرت أن حرارتي مرتفعة وقد أكون بدأت الهلوسة.

فتحت عينيّ فجأة ونظرت إلى الشباك فوجدته مفتوحًا على مصراعيه، ارتعدت أطرافي من الخوف وأنا أجد رجلًا متسمرًا وهو يشير بيده إلى أحد الأدراج في الطاولة المقابلة ثم بدأ يختفي تدريجًا، أخذت أفرك عينيّ لأتحقق أني لا أحلم، لم أستطع التحقق مما رأيت، لكن ما أنا متحققة منه هو أن الشباك كان مغلقًا قبل قليل!

أضأت أنوار الغرفة، وتوجهت نحو الدُرْج الذي أشار إليه ذلك الرجل، بحثت فيه جيدًا ولم أجد شيئًا، عدت إلى سريري وحاولت إكمال نومي لكني لم أستطع فعل ذلك حتى طلع الصباح.

- هل تشرق الشمس إلّا حين نبصرها؟

كان سؤالًا غبيًا من أحد أبناء أخي حين أخبرته أن الحياة لا تتوقف والشمس تشرق كل يوم رغمًا عنّا. لم أجبه، فأكمل:

- أمس كنت متعبًا فلم أجعل شمسي تشرق، لا أريد أن يضيع مني يومٌ هكذا، الأيام التي لا تشرق شمسي فيها يجب ألا تمر!

لم أدرك ماذا كان يقصد، لكني رجعت إلى أيامي السابقة ولم أجد فيها الكثير من الإثارة، لا أعلم متى ستشرق شمسي، وها أنا على مشارف العشرين أجدني مكتفية من الحياة، لا أستطيع أن أعيش عشرين سنة أخرى هكذا، الرتابة تأكلني من كل جانب.

ما قيمة الحياة إذا كانت خالية من النجاح؟

أريد أن أعيش مغامرة كبيرة، أن أقتحم عوالمَ أخرى وأجوب الكون بحثًا عن ذاتي، تلك التي لم أجدها منذ عقدين.

الحياة طويلة جدًا لمن لا يعمل!

الحياة طويلة جدًا لمن ينتظر!

لكني مازلت منتظرة، ولا أعلم فعلًا ما ينتظرني، أشعر أن هناك شيئًا جميلًا فوق خطوط السماء سوف يحتل سمائي عما قريب.

كنت أفكر وأفكر وأفكر، لم أشعر بالمسافة التي قطعتها وأنا في السيارة إلا حين سمعت صوت السائق: مدام، وصلنا إلى الجامعة!

مازلت أذكر عندما أنهيت دراستي الثانوية وبدأت الاقتراحات تنهال علي حول أية كلية سألتحق بها، لم أكن مهتمة كثيرًا، التحقت بكلية الحقوق والعلوم السياسية طمعًا في أن أنال حقوقي المزعومة، عادةً، فكرة طائشة هي ما تصنع المستقبل.

سحبت شنطتي من المقعد المجاور، ترجلت من السيارة وتركت الباب مفتوحًا وركضت للحاق بمحاضرتي قبل أن تبدأ.

كانت إحدى مواد القانون البغيضة، لم أكن أحب هذه المادة إلا بسبب د. هدى، الدكتورة التي تشرف على المادة، كانت كلماتها دائمًا تبعث على التفكر.

كانت د. هدى في منتصف الأربعينيات من العمر، معتدلة الطول والبنية، ولا تهتم كثيرًا بترتيب مظهرها، تتحدث مع الجميع بهدوء يشوبه ثقة بالنفس، وهي بالرغم من معرفتها الكبيرة إلّا أنها متواضعة وحسنة التعامل مع الجميع.

دخلت إلى القاعة متأخرة بضع قائق، وفور جلوسي بادرتني:

- سلمى، ماذا ستفعلين لو كان اليوم آخر يوم في حياتك؟

أربكني سؤالها، لم أكن مستعدة، لكنني أجبت بابتسامة:

- سأنتحر، سأباغت الموت قبل أن يفعل هو!

لم يكن ردي موفقًا على ما أعتقد، كان سؤالًا جادًا على ما يبدو. قالت د. هدى:

- حسنًا إجابة منطقية، لكن ليس هذا ما عنيته، هل فعلًا هذا ما تريدين فعله في يومك الأخير؟ ألا تريدين أن تفعلي كل الأشياء التي كنتِ تتمنين فعلها مسبقًا؟
- بالطبع!
- وما أهم شيء في لائحة أمنياتك؟
- أن أكون حرة!
- جميل يا سلمى، ولماذا لستِ كذلك؟ لم لا تكونين حرة؟
- لأنني لا أستطيع أن أكون كذلك.
- لماذا؟
- أُفضِّل السكوت.
- من يتقن الصمت يتقن العبودية!
- . . .

عدت إلى منزلي وأنا أفكر في تلك الجملة «من يتقن الصمت يتقن العبودية». هذا صحيح ولكن.. من أنا لأتحدث؟ أنا لست سوى امرأة في مملكة الرجال، لا يحق لي أن أفكر في كلمة خطيرة ككلمة «الحرية»، أفضِّل الصمت حاليًا.

كانت الساعة الثانية ظهرًا، وكنت متعبة جدًا، لم أنم جيدًا بالأمس لذا دخلت في قيلولة طويلة ما أن ألقيت بنفسي على السرير، ولم أستيقظ إلا بعد المغرب.

عندما استيقظت وأنا أهم بالدخول إلى الحمام لمحت دُرج الطاولة المجاورة مفتوحًا قليلًا، اقتربت منه وفتحته بهدوء، وماذا وجدت!

رسالة من طارق!

# (3)

## ـ الرسالة الرابعة ـ

قلتِ لي ذات يوم، هل تخشى الموت؟

قلتُ إن فكرة الموت في ذاتها لا تشكل هاجسًا لدي، أفكر في الموت بأنه مرحلة جيدة للانتقال إلى عالم أفضل، عفوية الموت جذابة، فالموت لا يتعمد أذيةً أحد، لا يعترف بالواسطة، لا يقبل المماطلة، لا يحب ولا يكره، لا ينسى، لذا فضلته على كثير من البشر.

الموت يشبه ساعي بريد متطفلًا، ينقل أرواحنا من مكان إلى آخر رغمًا عنا، لذلك فأنا أجهز دائمًا رسالتي بانتظار أن يتلقفها يومًا ما.

- يا إلهي أنت تجعل كل شيء جميلًا، حتى الموت!
- يا سيدتي، الحياة جميلة كفاية لأن ننام ونحن نتنفس دون مساعدة.

- لم تجرب طعم الموت يومًا، لم تجرب أن تصحو على حقيقة فقد أختك، ثم تأتي لتقول كلامًا يشبه الألغاز! يا سيدي دع عنك هذا وأنصت إلى حزني، سيخبرك كثيرًا عن الموت.

- بلى جربت! وخطف الموت أصدقائي، لكن لم أدفن نفسي معهم مثلما تفعلين، سيرجعون جميعًا، وسترجع أختك، ألم يخبرك إيليا أبو ماضي بذلك؟

**لسوف يرجع عطرًا في الرياحين**
**أو نسمةً تتهادى في البساتين**
**أو بسمة في ثغور الخرّد العين**
**فالموت ما هد إلا هيكل الطين**

لم تكن هذه الغبية تعي ذلك. وما الموت؟ وما الحياة؟ ليس ذلك كله إلا كذبة كبرى، أسماء مخيفة تخدع الجميع، فالحياة هي ما نحن عليه وهي ما سنكون عليه بعد أن نعيش حياة أخرى مؤقتة تسمى موتًا. إن نظرتنا القاصرة إلى الأشياء تجعلنا نتصورها بما يتفق مع طبيعتنا وقدراتنا البشرية، لا على حقيقتها التي هي عليها.

حسنًا أتعلمين حقًا ما الموت؟ هو أن أخسرك!

هو أن تمر ذكرياتي أمامك كل يوم دون أن تبتسمي لحظة واحدة أو حتى أن تبكي، الموت هو أن يكون كل منا في نقطة صغيرة من أرجاء الكون ولا يجمعنا حلم، أن يكتب القدر وجودنا في الزمن نفسه وبالمشاعر نفسها ثم لا نلتقي أبدًا.

إنّ الأبعاد لا تكتمل أبدًا، الزمن والمكان والمشاعر، دائمًا ينقص طرف ما، عندما كنا نعمل معًا كانت تنقصنا المشاعر، وعندما أتت المشاعر ذهب الزمن الذي يمكنني فيه أن أحب من جديد، وبينما أنا أحاول الاقتراب بالزمن قسرًا أخشى أن أخسر المكان الذي يجمعنا قسرًا، إنها أحجية، أحجية معقدة يا ترف!

ليتني كنت أدري أن الموت هو حبك، قبل أن تقتليني.

لم يدر ببالي أنك كنتِ تتسللين خفية كما يتسلل المخدر في مجرى الدم، ينساب هادئًا حتى يحكم قبضته على جسد هزيل ثم يلقيه أرضًا، هكذا كنتِ تلقين بي إلى السماء.

أخبريني لماذا كنتِ تقتربين مني شيئًا فشيئًا؟ لماذا أخبرتِني بحبك القديم؟ لماذا اشتكيتِ إلي من

عمتك؟ لماذا شاركتِني في تفاصيل وفاة أختك الكبرى؟ لماذا ناقشتني حول كتب غازي القصيبي؟ لماذا أخذتِ تقرئين لي أشعارك القصيرة؟ لماذا أنا؟

هل فعلتِ ذلك عمدًا وأنتِ تعرفين استحالة أن نكون معًا؟ ذلك المستحيل الذي كنت أتحداك به عندما قلت لك: لا وجود للمستحيل!

- بلى هو موجود!
- لا ليس موجودًا.
- وهل تستطيع أن تبني ناطحة سحاب مثلًا في يومين؟
- نعم! لكن ليست لدي القدرات حاليًا لأبنيها، ربما في المستقبل تتوافر تقنيات أخرى فأستطيع بناءها.
- لكنها حاليًا مستحيلة!
- ليست ممكنة حاليًا من خلال المعطيات الحالية، لكنها ليست مستحيلة.
- هذا يعني أن المستحيل موجود، وكلما تطور العالم ستظهر مستحيلات أخرى.
- تقصدين تحديات أخرى، فالمستحيل كلمة اخترعها ذوو الإرادة الضعيفة لتبرير فشلهم.

هل كنتُ على خطأ؟ هل كنتُ أعلم أن المستحيل الذي أنا مقبل عليه لا يعترف بهذه السفسطة الفكرية؟ لا أعلم، كل ما أعلمه هو أن حبًا لم تختر بدايته، لا يمكنك حتمًا أن تتوقع خاتمته.

تركتِ لي يومئذ ورقة صغيرة مكتوب عليها: «أعترف بأني أجهلك، أجهل من تكون». لم أعلّق على ما فيها، تجاهلتك، حتى أتيتِني بعدها بعدة أيام تطلبين رأيي في نص أدبي لك:

«لا أنتظر منك اللقاء فلا أعلم لك مدينة أو وطنًا، وأعلم أني سأكون طيف شاعرة حزينة، مستبدٌ أنت بكل النساء، بخيلٌ بمشاعرك كضوء شمعة، رغم ذلك لا تسألني لمَ أحببتك، فلا يُسأل الطير لمَ يعشق سماءه.

ليتك تعلم أيها البعيد أن لك في القلب قرية أنت فيها سيد القبيلة. لم أرَك إلا لحظات شحيحة قليلة، لكن قلبي أبحر في موجك أعوامًا عدّة. ولا ظِلال للحب إلا شجرة خريفية، لذلك سأمر من تحتها سريعًا، سأمر من حياتك كبقية النساء!».

ثم قلتِ لي بعد أن قرأتها: الآن وجب علي الرحيل، فلم يعد هناك ما يستحق البقاء.

لم أستطع الكلام بعد كل ذلك، هممتِ بالرحيل فلحقْتُك وقلت: قبل أن ترحلي أريد أن أعرض عليك نصًا شعريًا غدًا، وسأنتظر ردك، ثم انسحبتُ بخجل.

كنت قد عنونت رسالتي لك بجملة: «الحب لعبة البلهاء»، وكتبت:

دعيني.. فإني مللت الهوى والجنون..

وسافرت عنه بعيدًا بعيدًا.. إلى عالمٍ من سكون..

إلى حيث لا حزنَ يأتي.. ولا وخزاتٍ من الدمع..

أو أغنياتٍ تضج شرورًا.. وفرط حنين..

دعيني.. فقد أخلف الحب ميعاده..

وراح يلف شبابيكه في بلادٍ حزينة..

وراح يفتش عن عاشقين.. وعن وطنٍ آخر قد يعينه..

وعن زقزقات طيور.. وعن أمنياتٍ.. وعن ضحكاتٍ..

ليسرقها ويغادر تلك المدينة..

دعيني.. فإني بعيد..

وبيني وبينك ألف سماء.. وألف مدينة.. وسورٌ وماء..

وعمرٌ سحيق.. ونحن على لهفٍ ينتشينا..

نفتّش عن موعدٍ أو لقاء.. هراء..

دعيني.. فإني ركامٌ شحيح..

يفيء إلى همه السرمدي.. وجرحٌ ندي..

تبلله أمسيات السراب.. وسوط العذاب يشد يدي..

ونسمة حبٍ تقول لقلبي: وبالفرح حتمًا سيأتي غدي..

كانت الكلمات تحمل جزءًا من همي، بين ضياعي بها، وهروبي منها، لم أكن أستمع إلى قلبي وهو يرفض كلماتي، لم أكن أستطيع الالتفات إلى الخلف مهما كلّف الأمر، لا يمكن أن أقع، ليس أنا.

ظننتُ أن كل شيء قد انتهى وأنها قد فهمت الرسالة، إنّ أية امرأة كانت لترحل عند رفضها، كنتُ ساذجًا، لم تمض ساعات حتى قرأتُ ردها:

«ما أقسى إليك الدروب، يا هدية عمري وضَلال روحي، لا عجب إن كان حبك اليوم عصيًّا. أيها البعيد القريب، ما كان للحب أن يُنعت يومًا بالغباء. يا أمنيتي الأخيرة، يا همس النور وتَبسُّم السماء، الحب معركة النبلاء، الحب لوحة الأمل، أيها المستحيل، «إنه ذنبٌ، عدم الوقوع بالحب» هكذا يقولون، يا سيدي، امضِ، أنا طيف دخان مات في مدفأةٍ ذات شتاء».

لن أنسى ما قلتِه يومًا: الحب معركة النبلاء.

~ **طارق**

❀ ❀ ❀

كانت رسالة حزينة، موغلةً في الفقد، لا أدري أأحزن على طارق أم ترف! إن الحب سيىء، هذا ما توصلت إليه، لماذا قد أحزن بسبب شخص، لدي أمور أهم لتحزنني، لدي مشاكل أكبر، سأحب عندما أتخلص منها، الحب حالة من البذخ لم أصلها بعد، أنا في طور تكويني كبشر، لم أصل إلى هذه المرحلة السامية بعد.

كنت أفكر في قصة طارق الحزينة قبل أن أتذكر

الموضوع الأهم: كيف جاءت هذه الرسالة إلى غرفتي؟ كيف وجدتها في الدرج نفسه الذي أشار إليه ذلك الرجل في الحلم؟ يبدو أنه لم يكن حلمًا! يا إلهي ما هذا؟

لم تكد دقات قلبي المنزعجة لتهدأ حتى تذكرت أمرًا آخر، لقد ابتدأت الرسالة بالحديث عن الموت، كيف عَلِم طارق بأمر حديثي عن الموت في اليوم نفسه أثناء محاضرة د. هدى، هل هي محض مصادفة؟

انشغل تفكيري بذلك طوال الليل، لم يهدأ لي بال حتى قادني تفكيري إلى حيلة، كتبت على صدر ورقة صغيرة: «أيًا تكن، أخبرني من أنت، لا تخف» ودسستها في الدرج نفسه قبل ذهابي إلى الجامعة في اليوم التالي.

ذهبت إلى الجامعة، وعقلي مشحون بالكثير من الأفكار، وقليل من الخوف، لم يكن ذلك الرجل المجهول يمثل خطرًا لي، أنا متيقنة من ذلك، كنت في الحرم الجامعي وأنا أقص هذه القصة لصديقاتي، لم يصدّقنني إطلاقًا، بدأن بالضحك من كلامي، وكنّ متيقنات أنني أختلق هذه الرسائل.

لمحتُ الدكتورة هدى وهي في طريقها إلى

مكتبها فتركتُ البنات وأسرعتُ إليها، لحقتها وقلت لها بكل حماسة:

- د. هدى، لقد عرفت ماذا سأفعل في يومي الأخير قبل الموت.
- ماذا ستفعلين؟
- لن أفعل شيئًا!
- ولماذا؟
- سأعيش بشكل طبيعي، فكرة الموت في ذاتها لم تعد تمثل هاجسًا لدي، الموت مرحلة جيدة للانتقال إلى عالم أفضل.

أكملت ما تعلمته من طارق، وفاجأت به معلمتي حتى اقتنعت، قالت لي إنها ستتحدث في المحاضرة القادمة بعد ساعتين عن موضوع قد يهمني. لذا عدت وأنا متشوقة إلى ما ستقوله في المحاضرة!

عند بدء محاضرتها، التفتت د. هدى نحوي مباشرة وسألتني:

- سلمى، تريدين أن تكوني حرة، صحيح؟
- صحيح!

- وماذا قدّمتِ من تضحيات لتنالي هذه الحرية؟
- ممم.. لا شيء!
- كيف تتوقعين نيل حريتك بهذه السهولة في مجتمع كهذا؟
- لا أعرف!

ابتعدت الدكتورة عني واتجهت نحو السبورة البيضاء في مقدمة القاعة، التقطت قلمًا وكتبَتْ: «قاعدة رقم 1: دائمًا، القمع لا يمكن أن يأتي إلا نتيجة للخوف».

تعجبت كثيرًا من هذه الجملة، القمع يأتي عادة نتيجة قوة وليس عن ضعف وخوف، لم يطل تفكيري حتى بدأت تتحدث:

«فكّروا قليلًا لماذا يمكن أن يكون دافع التسلط هو الخوف؟ نحن نجهل ما نستطيع فعله، يتم تجهيلنا بشكل ممنهج حتى نصبح قطيعًا لا يقوى على الرفض. نحن نخشى التغيير لأننا لا نملك الإمكانيات الكافية لتوقع ما هو ممكن أن يحدث في المستقبل. من يملك القدرة على التغيير، من يملك القدرة على المغامرة هو من سيملك القوة بالمستقبل، الضعفاء فقط هم من

يبقون على حالهم. نحن أقوى إذا اختفى الجهل، لا يمكن قتل فكرة، الأفكار تنتشر عبر الهواء، الخوف من الفكرة، الخوف من العقل، الخوف هو أصل القمع.

هل تعلمون ما أعظم ذنب يقترفه الإنسان؟ ليس الظلم ولا القتل ولا أي شيء آخر، إنه الجهل، الجهل هو الذي يقود إلى هذه الذنوب كلها. نحن نتصرف بجهل، لذلك نعاني، من يجهل يقتل، من يجهل يظلم، من يجهل أيضًا يتعرض للظلم دومًا».

كان رأسي محشوًا بالأفكار والأشياء، عدت إلى المنزل وذهني متوهج، أنا ممتلئة بالطاقة الآن، تسيطر علي فكرة واحدة، الحياة.

تذّكرت أنني وضعت رسالة للضيف المجهول في درج الطاولة، أسرعت إلى هناك لأتفقدها، فتحت الدرج، وللأسف وجدت الرسالة كما هي، ظلّت الرسالة في مكانها أيامًا دون أن يلمسها أحد، يبدو أن مغامرتي الصغيرة انتهت، لا أحد هنا.

# (4)

إلى الأشياء الهامشية التي لا يمكنني العيش دونها، إلى حبة السكر في فنجان القهوة، إلى ابتسامة عاملة النظافة في الكلية، إلى كلمة مرور جوالي، شكرًا.

تلك الأشياء الهامشية هي ما تجعل الحياة كما هي اليوم، كل شعاع ضوء، كل انكسارة في فستان صديقتي، كل هذه التفاصيل البسيطة تغيّر شيئًا في الكون.

أحب العبث بالتفاصيل، تغيير بعض الأشياء يكون أمرًا مريحًا دائمًا، أغيّر مسار نملة متجهة نحو قطعة حلوى، أنقش ابتسامة على جذع شجرة بائسة، هذه أمور صغيرة لا ينتبه إليها البشر، من العجيب أني أهتم بذلك، ربما أكون غريبة الأطوار لا أكثر.

كنت أحس بجرعة غير معتادة من الأمل هذا الصباح، تنفّس صبح الرياض، وتنفّست أرواحنا يومًا جديدًا، لا يزال هناك وقت لفعل ما تريد ما دمت تستطيع التنفس.

الأمل، ما أجمل هذه الكلمة، هي وحدها ما تصنعنا من جديد بعد كل انكسار، هي ما تعيد اكتشافنا، كيف نموت وكل نبضة في الحياة تصرخ بالأمل؟ كيف لا نرى هذا كل يوم!؟

كان أملي في معرفة طارق يكبر كل يوم، رغم اختراقه المخيف لحياتي، رغم بعثرته لروتيني اليومي، رغم اختفائه بعد كل ذلك، لكني أفتش عنه كل يوم، أفتش عن رسائله في أدراجي، في شنطتي، في بريدي!

بريدي الإلكتروني! كيف لم أفكر في إرسال رسالة إليه! فتحت بريدي فورًا وكتبت له: «طارق، أين أنت؟».

انتظرت أيامًا عديدة حتى كدت أفقد الأمل، كان لدي ذلك الوهج الخفيف من الضوء المختبئ خلف الستار، تنبلج بعض كلمات طارق من خلفه ثم تتوارى.

ثم جاءتني رسالته كالغيث، لم أصدق! هل يعقل أن يكتب لي؟ هل هو شخصية حقيقية أصلًا؟

فتحت الرسالة:

❀ ❀ ❀

## ـ الرسالة الخامسة ـ

- لو أن شخصًا أحبك بجنون، وأنت تحبه لكن حبك له مختلف.. أقصد أنك تحبه بطريقة أخرى.. ممم هل فهمتني يا طارق؟
- لا يمكن أن أحب شخصًا لمجرد أنه يحبني!
- ومتى ستحب؟
- لا وقت لدي لهذه الأشياء.
- لا وقت لديك لشيء، دائمًا.
- وأنتِ؟
- تلك القصة القديمة قصمت ظهري، لست مغرورة، لكني كنت أرى نفسي شخصًا لا يمكن رفضه، لذا جاءت التجربة قاسية. لقد كان رجلًا صعبًا وعصبيًا، حتى في أحلامي كنت أراه متضايقًا مني!
- لماذا؟
- أووه دعك من سيرته، أنا أريد أن أعيش فقط.
- كم هو مؤسف أن تشعرك الأشياء الجميلة بالحزن، الحب مثلًا!

- لا تأسف، فالحياة ليست رواية ينام في نهايتها الجميع سعداء.

كان هذا آخر لقاء قبل أن تختفي مجددًا، تلك الشريرة الصغيرة، وكأن الأرض قد اقتلعتها من سمائي، وكأنها تريد مني أن أغزو الأرض بحثًا عنها. لكني لم أفعل.

كانت لدي مشاكلي الخاصة، كنت مريضًا، واستقلت من الشركة التي عملت بها لعقد من الزمان، احتجت فقط إلى الراحة، لأن أنسى كل شيء، لأن أعيد ترتيب ما تبقى من حياتي، لم يكن هناك حقًا ما يوجع أكثر من أن أكون فارغًا، أن أهرب من صخب الحياة وأعيش وحدي بعيدًا.

لا شيء، وحدة، وكوب قهوة.. ذلك أصعب مما توقعت.

ثم جئتِ أنتِ، عام آخر من الغياب ثم رأيتك، أنتِ لا تتغيرين أبدًا، لا تشيخين، أما أنا فقد حف بي الشيب من كل جانب، لم أكن قد تجاوزت الثلاثين.

كانت الأيام التي خلت منك تشبه اللاشيء، تشبه أن أملك عالمًا لا يقطنه أحد، تافهة تلك الأيام التي كنتِ مختبئة فيها بعيدًا، كان كل قدرٍ وكل حركة وكل

كلمة تقترب بك مني عمدًا، تواطأ القدر ليحوك مسرحية جميلة نلتقي فيها، أراد كل شيء في الكون لقاءنا فالتقينا.

كم أنتِ غامضة، هذا ما كنتُ أقوله دائمًا وتنكرينه بشراسة، كنتِ تقولين إنك هادئة فقط، تميلين إلى العزلة، لا تكترثين كثيرًا لما تحبه النساء، حديثك مختصر وقصير، لا تشغلك التفاصيل، ليست لديك صديقة حميمة سوى تلك الشجرة العتيقة في حديقة بيتك، هل كنتِ تحادثينها عني كثيرًا؟ كم من الأسرار تحملها عنك مذ كنت طفلة وحتى اليوم؟

قلتِ لي إنك مزاجية، تملين بسرعة، لكني متيقن أنك لن تملّيني يومًا، حتى لو توقف الزمن وعشنا معًا إلى الأبد، لن تملّي، أتذكرين حين حاولنا إيقاف الزمن؟

- لنوقف الزمن يا طارق..!
- حسنًا كم الساعة الآن؟
- 1:38 صباحًا.
- 1:38 صباحًا.
- توقف!

لم يتوقف الزمن، لم يكترث لأوامرنا، لا يمكن

لنا إلا أن نمضي معه، هكذا هو الأمر، ونحن الذين نظن أن بإمكاننا فعل أي شيء، ما أتفهك أيها الإنسان! ما نحن إلا دمى في مسرحية الحياة الكبرى، كائنات مجردة لا تكترث لها الأشياء، تحركنا الأقدار لا نحن من نحركها.

كنت أنتظرك، رغمًا عني كنت أنتظرك، شيء ما يقول لي أن أقترب، وشيطان يقول لي أن أهرب، كنت أنتظرك يا غامضة، ولم أعلم لماذا، كنتُ أرى جزءًا من الحقيقة، الجانب الجميل، وكنتِ ماكرة، توقعين بي في عالمك وتقعين معي.

كيف لم تفهمي أنك ستندمين كثيرًا على حبك لي؟ لم يعد بإمكانك أن تمحيني كما تفعلين بأبطال قصصك التي تكتبينها، أنا حقيقتك التي لن تغيب، أنا ذلك الرجل الذي ستفكرين به في ما تبقى من عمرك.

أتذكرين عندما قلت لك مودعًا ذات مرة: «باي»، قلتِ لي ألا أقولها ثانية: «باي كلمة صغيرة تنتهي بسرعة، قول فمان الله»، حسنًا لن تسمعيها ثانية، ولن تسمعي غيرها!

~ **طارق**

❀ ❀ ❀

كانت رسالة قصيرة، لم تعجبني هذه المرة، ربما لأني كنت أتوقع أن تكون رسالته موجهة إلي، لا إلى هذه الكئيبة، يبدو أني بدأت أغار منها.

أطلقتُ ضحكة مجلجلة، أنا أغار من امرأة وهمية تحب رجلًا وهميًا، يا لسخافة الأمر، لم تمض ثوانٍ حتى انتبهت إلى أن هناك رسالة أخرى موجودة في بريدي الإلكتروني من طارق، فتحتها على عجل:

❀ ❀ ❀

## ـ الرسالة السادسة ـ

كتبتِ لي:

«أخبرني لماذا أظل أرتب ما أود قوله لساعات، ثم أراك فتموت الكلمات؟ لمَ أنا متيقنة أنني سأظل بعيدة عنك؟ أنت بعيد، بعيد، كبعد المسافة بيننا، ماتت الكلمات يا سيدي.

هل يؤلمك يا طارق أن تكون حياتك ليست ملكًا لك؟ أن تنام وأنت تتمتم باسمه وتستيقظ سعيدًا فقط لأنه أول شخص طرأ ببالك؟ ألم يؤلمك يومًا أن شخصًا ما لا يحس بوجودك؟ أن يكون عالمه مليئًا بغيرك ثم تفتش عن منفذ تستطيع اختراق عالمه منه فلا

تجد! كل دقيقة أمضيها معه هي عمر، عمر بأكمله يا طارق، أنا التي كنت أخجل من الحب، وتحمرّ وجنتاي إن سمعت كلام الغزل، وأحتفظ بحكاياي لصديقتي الشجرة، لم أعد أقوى إلا على البوح!

أتعلم؟ بالرغم من أنني كنت وما زلت أُخضِع القلم لأهوائي، اليوم تخونني كل الكلمات والأحرف، وعليك أن تعرف بأنني أقوم بالبحث في داخلي وأنقّب بأعماقي حتى أهدي إليك شيئًا تفخر به إذا ما تذكرتني، وأفخر به أمام جميع من سكنت قلوبهن من النساء، ها أنا أكتب إليك ما عجزت أن أنطقه منذ زمن، علي أن أعترف بأنني خجلى منك حد الانحناء أمامك!

يا سيدي لست أنا من يتكلم الآن إنما هو شخص آخر، شخص لم تعره اهتمامًا كما أراد أن يكون، ليس إلا ذلك القلب الذي أدمن الخفقان من أجلك، كنت أنت وما زلت تحلّق بين نبضاته فتترك خلفه عطرًا يمنحك أملًا في العيش والبقاء. باسم الساعات التي جمعتني بك، باسم اللحظات التي حاصرها الصمت، باسم روحك الدافئة، باسم ساعات الانتظار: أحبك!

أتعلم ما منعني من الاعتراف؟ أنا خائفة أن أودع

حلمًا جميلًا مثلك، وأعلم يقينًا أنك راحل، لكنني أخبرتك ذات مرة بأنه يجب علينا أن نأخذ الفرصة كاملة، أسألك بكل الأشياء الجميلة حولك ألا تقسو علي».

كانت تلك رسالتك، كانت مشاعرك تفضح جدران قلبك، وتمزق قلبي، ذلك الإحساس بذنب لم أرتكبه ولم يكن خياري يومًا، أنا الذي أجامل البعيدين عني، لا أستطيع سوى أن أكون فظًا معك، أنا لا أستطيع أن أحبك يا سيدتي، لماذا لم تفهمي ذلك وقتذاك؟

كتبت لك:

«الحب ليس نهاية كل شيء، وليس ضروريًا أن يكون نهاية لصداقة ما، أخشى أن تسيئي فهمي، أو تعتبري كلامي إيذانًا برحيل أحدنا، أعتقد أن ما تربطني بك هي مشاعر صادقة عفوية جميلة، ليس بالضرورة أن تكون الحب الذي قصدتِه.

أعلم كل شيء، كل ما قلتِه وكل ما لم تقوليه، حتى أنا كنت مترددًا لكي أكتب لك هذا، لكني مضطر الآن، صدقيني لم أر مثل كلامك الصادق، وبساطة حبك، لكنها ربما جاءتني بعد فوات الأوان.

الحب يا سيدتي محفوف بالزلازل، وفي أغلب الأحيان يسقط من يسلكه قبل أن يصل إلى بر الأمان،

أنا سقطت من قبل ولم أستطع النهوض مجددًا، فسامحيني. لا تعتبي علي، أنا أيضًا أحبك، لكن حبًا آخر، حبًا جميلًا مليئًا بالفرح والتفاؤل ومشاعر الصداقة، فهل تقبلين حبي الآخر؟».

كانت رسالتي صادمة، لكنها واقعية أكثر من أي شيء آخر، أليس كذلك يا سلمى؟

~ **طارق**

❀ ❀ ❀

لقد قال اسمي! إنّ رسالته موجهة إلي! بدأت الأمور تتضح الآن، إنه يعرفني ويعرف اسمي!

من يكون ذلك الرجل؟ ولماذا يرسل إلي أنا؟ لماذا يحكي لي عن حبيبته؟ أسئلة كثيرة تزاحمت في فكري، لم يشتتها إلا دخول أخي منذر فجأة، ارتعبت وأغلقت المحمول فورًا، فصرخ:

- ماذا بك؟ ماذا كنتِ تفعلين؟

قفزت من سريري واقتربت منه وأنا أقول:

- لا شيء، هل تريد أن أعد لك الغداء؟

رمقني بنظرة ريبة ثم قال:

- نعم، وعلى فكرة «تجهّزي زين»، سيأتينا اليوم خطّاب، والخطيب سوف يراك.

ثم أغلق الباب وتلاشى من أمامي!

لم يمهلني للرد، لم أكن سأرد أصلًا سوى بكلمة «حاضر»! لا أستطيع أن أناقش منذر في شيء، حتى لو كان ذلك مستقبلي!

ذهبت لإعداد الغداء وأنا أبتسم، ابتسامة تقزز من الموضوع، ابتسامة سخرية في وجه القدر الذي يريد أن يغيظني بأفعاله، كم هو مضحك أن أكون سلعة ثمينة لأهلي يقومون بعرضها على أفضل مشترٍ، يساومون على جسدي، من يدفع أكثر يحصل على الجائزة، كان ثمني بخسًا في أكثر الأوقات، لم يكن يساوي قيمة سيارة رخيصة.

يجب علي أن أتأنق الليلة فجسدي المحبوس داخل أطنان من الخيوط السوداء لم يكن يزهو بالألوان إلا أمام الخطّاب، كنت أرفضهم واحدًا تلو الآخر، تارة بعذر الدراسة، وتارة أتظاهر بالمرض، وتارة بالجنون، لم يكن أي خطيب لي يحظى مني سوى برؤية عابرة لوجه يلوّثه المكياج، وجسد يلتف بالألبسة الضيقة، وكل ذلك بإشراف عائلي.

كنت أفكر في طارق عندما دخلت على عريس المستقبل، تخيلته هو، وأنا متأنقة أمامه، وهو يضحك لي في حضور أبي، وأنا أرد الابتسامة بنظرة خجل لم تكن إلا لطارق!

فكرّت في أن أرد على رسالة طارق، ولكن ماذا سأقول له؟ لا يهم، المهم أن أرد عليه، لقد وجه رسالته لي أخيرًا! جهّزت كل ما سأقوله وأنا في حضرة الخطيب المسكين، الإلهام هو أن تأتيك الفكرة في الوقت الخطأ.

عندما خرجت، هربت سريعًا من أسئلة أمي وأخواتي التي أمطرتني بها ألسنتهنّ: «كيف شكله؟ أعجبك؟ واضح عليها أنها طاحت في دباديبه، احكي لنا، تعالي يا بنت!».

غبت عن الجميع فور إغلاقي باب غرفتي، هدأت الأصوات، وسكنت الحركات، ثم علا ضجيج روحي، أحيانًا تزدحم مسامعنا بالصمت أكثر مما تفعله آلاف الكلمات.

بدأت الأفكار تتزاحم في رأسي، ماذا سأكتب لطارق؟

❀ ❀ ❀

# (5)

لم تكن صدفة، القدر يقرر ذلك.

كنت أفكر في الرسائل التي وصلتني من ذلك المجهول، أفكر في ظهوره لي عبر النافذة، في بعض الأحداث التي صادفت وجوده في حياتي.

الصدفة هي مجموعة أحداث طبيعية لكن تفكيرنا البسيط لم يستطع إيجاد مبرر لوقوعها بهذا الشكل والترتيب، فأسماها صدفة.

إن مصادفة وجودنا في هذه اللحظة من بين ملايين السنين، وفي هذا المكان بين ملايين الكواكب، لهي مصادفة عظيمة حقًا، أكبر من أي صدفة أخرى. هذا يلغي أي احتمالات لأن نعتبر أشياء عابرة صدفة.

دائمًا ما تطيف أفكاري بي عندما أبدأ الإبحار في هذا الكون الفسيح، تسير بي نحو نقطة لا مرئية، أضيع فورًا وأقرر الرجوع إلى الأرض، أسئلة وجودية مخيفة تتحرك بسرعة الضوء في دماغي، لا أستطيع

تجاهلها ولا نسيانها، لا يمكن لأستاذة الدين ردعي رغم تحذيرها لي كثيرًا ألّا أشغل بالي ببعض الأسئلة، لكني منشغلة، منشغلة جدًا بالتفكير في ذلك، كان هذا قبل سنتين، في سنتي الثانوية الأخيرة، حيث ينشغل الجميع بتجهيز وريقات صغيرة للغش أثناء الامتحانات النهائية، لم أكن أفعل ذلك، ليس لدافع ديني أو أخلاقي، لكني أخاف كثيرًا، تربيتي على الخوف أثرت كثيرًا في سلوكي، لم أكن أنطلق في فضاءات الحرية والجرأة إلا عندما ينعدم الرقيب.

كنت أبحث عن إجابة، ولم أجدها في الكتب الدراسية ولا في كلمات الوعظ، كدت أنجرف بعيدًا نحو اللادين لو فكرّت أكثر، لكنني توقفت ذات يوم، توقفت حين سمعت خبر وفاة إحدى صديقاتي، انتابتني تلك النفحة الإيمانية التي تقول لي بصوت خافت: لا تسرعي يا سلمى، لديك الحياة بأكملها لتجيب عن تساؤلاتك، الله سيجيبك.

منذ ذلك الحين وأنا أنتظر.

أنتظر الحياة لتريني طريقها، أنتظر الإجابة عن أهم أسئلتي: من أنا؟

كان طارق بصيصًا من الأمل في رحلتي نحو

اكتشاف ذاتي، تلك الذات التي ينقصها الكثير، أولها أن أعترف بكينونتها.

كنت أحيانًا أبوح ببعض أحلامي لصديقاتي لكنهن لم يعرنني اهتمامًا، لا يدور في بالهنّ تساؤلات محيرة مثل تلك التي تراودني. توقفت عن ذكر كثير من الأشياء بعد سخريتهن منّي حين سألنني عن حلمي:

- وأنتِ ما حلمك يا سلمى؟ زوج غني أم عمل براتب مغرٍ؟
- لا أستطيع أن أصرح، هو حلم خاص بي.
- قولي يلله!
- أحلم أن أجد ذاتي!
- يا شيخة روحي، قال أجد ذاتي.
- قلت لك الحلم حق خاص بي! كنت أعلم أنك ستسخرين!

تزاحمت الأفكار والذكريات، فتحت جهازي المحمول، نقرت على بريد طارق وكتبت جملة واحدة مقتبسة من فيلم كنت قد رأيته أخيرًا: «كل شيء أصبح بالمقلوب، وكأن حياتي معك هي الحقيقة، وكل شيء آخر هو مجرد حلم».

أغلقت عينيّ وبدأت أفكّر. . أفكر في كل شيء، لكن فكرة وحيدة تعود لتسيطر علي: من يكون طارق؟

النوم أجمل هروب من الدنيا.

نمت وأفقت، ولم أجد ردًا منه، ثم نمت مرة أخرى، ثم نمت ثالثة، لم يكن شيء ليملأ بريدي الخاوي، كان هذا هو الحال لأسابيع حتى بدأت أفقد الأمل في رده.

لم تكن أسابيعي الماضية سوى أيام تمضي دون أحداث ذات أهمية، حدث وحيد كان يهدد سكوني هو خطيبي الذي رفضتُه كالعادة، قلت لأمي:

- لا أريد الزواج الآن، اختلقي أي عذر لأبي.
- المشكلة يا بنتي ليست في أبيك، أخوك الأكبر يصرّ على تزويجك هذه المرة.
- يا سلام! ولماذا هذه المرة بالذات؟
- لأنه صديقه المقرّب، بالإضافة طبعًا إلى كونه اختيار مثالي، هذه المرة مختلفة يا سلمى، أنتِ الآن في سن الزواج، لا تضيعي فرصتك.

لم أجادل أمي كثيرًا، كنت مستبعدة تمامًا خيار الزواج في هذه المرحلة، ولم أستطع الإصرار أمام

رغبة الجميع، لذلك بدأت بالمماطلة والتأجيل مرتجية أن يملّ عريس المستقبل.

كان الشتاء قارسًا هذه الأيام، التحذيرات الكثيرة في الصحف تنبئ بموسم شتاء طويل، لكنني على عكس الكثيرين كنت أعشق أيام الشتاء هذه، كانت تشعرني بالانجذاب نحو أشياء لا أعرفها، كنت أدخر مؤونة كافية في مبيتي الشتوي، أعتكف وحدي في صومعتي الصغيرة، ثم أبحر في عالم من الجنون عبر الإنترنت، أحادث أناسًا لا أعرفهم، وأقع في غرام أوغاد أنساهم بمجرد أن أغلق صندوق المحادثات، أرقص على وقع أغانٍ فرنسية لا أفهم معناها، أجمع مشاعر كثيرة ثم أنثرها في وجه أول من يراسلني حتى لو كانت امرأة، كان كل شيء يبدو جنونيًا، لكن طارق هو الحلقة الوحيدة الناقصة لكي يكتمل الجنون.

لم يكن اختفاؤه ليطول أكثر، فوجئت اليوم برسالة منه تزيّن بريدي، صرخت من الفرح قبل أن أضع يدي على فمي لأكتم أنفاسي، مررت أصابعي بهدوء وفتحت الرسالة:

❀ ❀ ❀

## ـ الرسالة السابعة ـ

لا أعلم لماذا كنتِ تصرين أن تبقي إلى جانبي رغم رفضي لك، كنت أهرب منك، وكنتِ تأتين رغم كل شيء، لا يمكن أن يكون ذلك حبًا عاقلًا، قلتِ لي بعد أن أقسمت لك إنني لا أود جرح كبريائك لكني مضطر: «مستعدة أن أخسر كبريائي لأجلك!».

وعدتِني أن تكتبي لي كل يوم رسالة.

كنتِ تكتبين لي ما تشعرين به، تكتبين أحيانًا أشياء تبدو سخيفة، مثل مشكلتك مع زميلتك بالعمل أو جملة: «لا تلم من يعاتبك يومًا فهو يتوكأ على حبك»، وكنت أقرأ بشوق، لا أعلم لماذا، كم أنتِ ماكرة.

وعندما انقطعت أخبارك يومًا وأخبرتُك أني اشتقت إلى رسائلك قلتِ: «أنت اشتقت إلى رسائلي، أما أنا فاشتقت إليك أنت».

قلتِ لي أن أرفع رأسي للسماء عند الثامنة مساء، وستخبريني بسرٍ يأتيني عبر الغيوم، نسيتُ ما وعدتُك به، ثم أتتني رسالة منك: «هل رأيتني عند الغيوم؟ أنا رأيتك! رأيت طيفك بعيدًا، وأحسست أن

روحي وصلت إليك، شعور رائع، لا أستطيع وصفه».

اليوم كانت السنة الجديدة، قرأت شيئًا جميلًا منك:

«عام جديد، أراك في عيون الليل حلمًا، وفي غسق الفجر عطرًا يطوّقني، كل عام وأنت إلى جانبي. شيء أكبر من الحاجة يشدني إليك، أكبر من الحب وأعنف من الكبرياء.

بالأمس أدركت أنه لا عاصم لي من حبك إلا الموت، بالأمس باءت كل محاولاتي بالفشل، أيقنت بأن لا شيء يستر شوقي العاري إليك.

بالرغم من أنني فكرت فيك كثيرًا وأبحرت في موجك أكثر، إلا أنني كنت أدرك أنك شيء بعيد لا يُدرك، وبأنك مغامرة العمر التي أرهقتني، سيدي، إنه فوق إمكاني، وأعلم بأنها مشكلتي وحدي، لكنك شمعة في قلبي تثير فيه الأمل كلما جئت، والشمع يذوب، أخشى أن يذيبني معه.

أتعلم؟ عندما أرى عالمك المزدحم بالناس والأشياء أعتقد أني أعيش بعيدًا جدًا عنك، غربة فظيعة، يا الله لماذا أحس بضعف شديد وأنا معك، أخذتني من كل شيء حتى من نفسي، أخبرني كيف لي

أن أعيش من دونك؟ وما معنى أن تكون دقات قلبك ليست ملكًا لك؟

عندما تحب الليل لأنه الوحيد الذي يجمعك بمن تحب، عندما تغمض عينيك وتتخيله، تتذكره مع كل ابتسامة وتشتاق إليه بكل ثانية، أخبرني أهذا حب أم جنون؟

أغمض عينيك مثلي، ألا ترانا»؟

أغمضتُ عينيّ، كانت الصورة مشوشة جدًا، لم أرها، رأيت ظلًا بعيدًا ينادي من بعيد، كنت أتذكر كلمات الشاعر المصري الأبنودي:

«جاي من بلادي البعيدة، لا زاد ولا ميّة..

وغربتي صاحبتي، بتحوم حواليّا..

وانتي تقولي لي بحبك..

بتحبي أيه فيّا؟..

ودا حب أيه دا اللي من غير أيّ حرية؟؟»

كنت متيقنًا أنك تقتربين، تقتربين بشكل مفزع، تقتربين رغم رفضي لك، وإقصائي لمشاعرك، رغم اليأس والخوف والوجع كنتِ تقتربين مني، أنا خائف منك، أخاف أن أحبك فقط لأنك تحبينني، لا لأني

أحبك حقًا، كل حب ينتجه الخوف هو نفاق، حتى الله لا يمكننا أن نحبه لمجرد أننا نخافه.

ابتعدي عني فقط، هذا ما أطلبه.

وانقطعت رسائلك أسبوعًا، ثم أتيتِ لتزفي لي الخبر:

- أنا مسافرة إلى أميركا.
- لماذا؟ بسببي؟
- أفضل لنا أن نبتعد، سأكمل دراستي، وأحاول أن أنسى، أريد أن أعود إلى نفسي.

هكذا إذن، اخترتِ الحل السهل، لا أدري بماذا كنت أفكر وقتئذ، سأسعد لو غادرتِ الآن، لكن شيئًا مني يقول لي أن أحزن، بدأت أعتاد وجودك، ورسائلك، وكلماتك، لا أعلم، أعتقد أني أحب. كنت سأقول لك ذلك، لكني تخيلتك تقولين: «إذا بدأت الاعتقاد أنك تحب فأنت لست كذلك، الحب يأتي دون مقدمات!».

- طارق، كيف نُعدّ أحياء وفي قلبنا ألف أمل يموت؟
- صدقيني، يطلّ القمر كل يوم دون أن نختبئ من ضوئه الكاذب.

- لم أفهم، ماذا تقصد؟
- أقصد أن بعض الكذبات التي نعيشها هي ما تحملنا على أن نحيا.
- هل أستطيع أن أقولها ثانية؟
- ما هي؟
- تلك الكلمة التي تقتلني.
- . . .

يا جميلتي، أنا وهم، لست حقيقة، ليس هناك أنا، عابر طريق لا يأبه له أحد، قصيدة ملقاة على رصيف لا يزوره إلا الموتى. كالقمر، جميلٌ منظره من بعيد، لكن ما أن تقتربي منه حتى تجديه مليئًا بالحفر والتشققات. أما أنتِ فنجمة بعيدة، تضيء لي كل يوم بقدر ما يجعلني أعيش، وكلما اقتربتُ أكثر احترقت بنورها.

يا نجمتي البعيدة، هل أخفيك فأضلُّ الطريق، أم أدنيك فأحترق؟

كان البرد قارسًا، كنت أحتاج إلى روح دافئة، تنتشلني من هذا الشتات، لم أجد إلا طيفك مستقرًا أمامي، وكأنه يعاتبني على قساوة قلب لا يريد أن يغزوه الحب.

كنت أسير في شوارع الرياض، البرد شديد في هذا الوقت من الصباح، والمطر الذي لا يهطل إلا نادرًا هنا جاء اليوم غزيرًا على غير العادة، رأيتك في ابتسامة طفل يلعب تحت المطر، في انكسارة عين عجوز تتسوّل عند إشارة المرور، في خوف سيدة تعثرت قدماها على الرصيف المبلل.

لم أخطط لشيء هذا اليوم، أريد أن أعيشه دون غيره، أن أقع في الحب لهذا اليوم فقط، أن أضحك وأصرخ وأردد أغاني الحب عاليًا ثم أفقد الذاكرة غدًا، أحيانًا ليس من المهم أن تخطط ليومك بدقة، فليس هناك طريق صحيح ينتظرك.

أريد أن أحبك يومًا واحدًا، أريد أن نتبادل كلمات العشق ثم نرحل وننسى، لا أستطيع أن أكون لك أكثر من ذلك، هل يمكن أن يكون طلبي صعبًا إلى هذه الدرجة؟

الحياة جميلة، أريد أن أعيش لحظاتها الحلوة فقط، لا أحب الأشياء التي قد تبقيني تعيسًا، وأخشى أن يكون حبك أحدها!

- لا أعلم إن كان يهمك أم لا، أنا مسافرة غدًا.
- هكذا؟ بهذه السرعة؟

- أنا مريضة يا طارق، مريضة جدًا.
- ما بك؟
- ربما لم أقل لك ذلك من قبل، أنا مريضة وكنت أخشى أن أقول، أردت أن أكون كاملة بعينيك، لدي مشاكل في الكلى منذ زمن، وقد قرر أبي عرضي على أطباء متخصصين في أميركا.
- ولماذا تقولين لي ذلك الآن؟
- أنا ذاهبة لأجل عملية سوف أجريها، لا أدري هل سأراك بعدها أم لا.
- سوف تعودين، كوني متفائلة، أنا واثق من ذلك.
- هل تسمح لي أن أقولها لك الآن؟
- دعينا نفهمها بدون كلمات.
- لا تريد أن تسمعها مني؟ تريدها أن تظل حبيسة صدري؟
- ما الفائدة؟ هناك أشياء من الأفضل لنا أن تظل بالقلب.

ورحلتِ، ذهبتِ إلى أميركا، وأمامي منك رسالة تركتِها قبل أن تمضي، بدأت أقرأ:

«أدركت يقينًا أن الكلمات تخشى العاشقين مذ آمنت بك حبًا، اليوم قد يكون اللقاء الأخير بيننا، أنا لا أعرف لمَ أكتب لك، أنت تعلم كل شيء، تعلم أني أختنق وجعًا منك وعشقًا بك، وتعلم بأن الهوى يتمدد في شرياني حين أراك بقربي، أيها البعيد، أعترف بأن صبري أمامك قد هُزم فتماديت في الاعتراف رغمًا عني.

هل أتعبك الحب الذي يسكنني؟ أيها البعيد لن أعتذر عن شعوري تجاهك، لكنني أعتذر عن ذاك الثقل الكبير الذي يحمله كاهلك نتيجة جنوني بك، وحدك من تسكن الروح وتعيد إليها الابتسامة، وحدك من يجعلني أمامه تلميذة أصغي إليه فأحفظ كل كلمة تخرج من شفتيه.

أعترف لك دون استحياء أني أحببتك بكل ما فيّ، وأنك أبعدتني بكل ما فيك، أيها الجنون البعيد، أنت وحدك من أريد أن أسكنه من الوريد إلى الوريد.

غدًا سأكون بعيدة عنك، أرجوك كن بخير، ولا تنس أبعد أنثى منك وأقربهن، تذكر بأن نبضات قلبي ستدق مع نبضات قلبك فاهتم بها لنعيش معًا أنا وأنت، لم يعد يهمني إن كنت تبادلني الشعور أم لا،

لكنني أدعوك بأن تصبر على جنوني، سأرحل وأحتفظ بالكلمة في داخلي تحثني على الخروج فلا أصغي إليها من أجلك، سأحتفظ بها بعيدًا عنك إلى الأبد».

كنت أقرأ كتابًا بلا اكتراث حتى وقعت عيني على جملة مهيبة تقول: «هي ليست إلا خطوة واحدة، خطوة صغيرة، لكن من المستحيل أن نخطوها»، أغلقت الكتاب وقلت: نعم، هي تلك.

~ **طارق**

# (6)

لطالما كان الحب موجودًا، وسيظل كذلك.

لطالما كان الحزن موجودًا، وسيظل كذلك.

لطالما كان الموت موجودًا، وسيظل كذلك.

ما الأمر إذن؟ لماذا تفاجئنا الحياة كل يوم؟ وكأننا لم نعرفها إلا هذا الصباح! لماذا نظل مشدوهين لاختباراتها المتكررة؟ لماذا نشتم ونصرخ ونغضب ثم نعود لنعيشها بوداعة؟ لماذا نغرق في التفاصيل المروّعة؟

كنت أحاول العيش فقط، لكن الأمر ليس بهذه البساطة، لا يمكن لأحد أن يجلس وحيدًا على حافة الكون ويطلب أن تتركه الأقدار ليعيش في سلام، بمجرد دخولي إلى هذا الكوكب فإني جزء من فيلم طويل، كل نَفَس مني يؤثر في سير الكون، كل إيماءة، كل ارتعاشة شفة، كل شيء مترابط مع كل شيء، هكذا أفهم الأمر.

لا يمكن أن نعيش أيامنا في لونين فقط، هذا ما قالته لي د. هدى.

- ليس الأمر اختيارًا، تفاصيل كثيرة في حياتك لا تملكينها وحدك، إن خياراتك المطلقة قليلة إذا ما أخذنا في الاعتبار كل ما يتعلق بها، وكل ما تؤثر فيه.
- لكن دكتورة، لماذا هذا التعقيد، الأمر أسهل بكثير.
- أنتِ لا تدركين ذلك، في المسافة بين البياض والسواد تقبع كل تفاصيل الحياة. في تلك التدرجات الرمادية التي منحتنا إياها الطبيعة نعيش نحن متنقلين كل يوم.
- د. هدى، اسمحي لي أن أقول، أحيانًا أحس أنك تركزين على البقع السوداء الصغيرة وتتركين كل بياض الكون، تهملين الجملة وتعلّقين على النقطة في آخرها.
- سلمى، بالضبط هذا ما أحاول فعله، إن تلك النقط في جملة ما هي التي ترشدنا وتسهّل لنا القراءة، الخطوط العريضة ترشدك. لنفترض أنني أنا نقطة في حياتك. هذه رسالة من الطبيعة، ألا تحبين تلقي الرسائل من المجهولين؟

- رسائل؟ ممم، لا أدري لم أفكر يومًا.

خطرت على بالي رسائل طارق الغريبة، ماذا تكون بالضبط؟

كان يومي البسيط يمر كعادته، لا شيء، ثم لا شيء، ثم لا شيء، أعود من الجامعة، أعمال بيت كئيبة، انزواء يومي في الغرفة، ومشاعر زائفة.

لكن هذا اليوم كان حقيقيًا بالنسبة إلي على غير العادة، كنت أقاوم كل المغريات التي تشدني إلى السوداوية، كنت سعيدة، هكذا بلا أسباب، وكأن أحدهم كتب في أقداري: اليوم يجب أن تظلّي سعيدة.

كنت أتابع بعض القنوات الإخبارية، مشاهد الموت والدمار أصبحت شيئًا مألوفًا لا يؤثر فينا، لكنني لا أفهم، لمَ يفضل أحدهم أن يموت من أجل الآخرين، أفضّل حين أموت أن يكون سبب موتي متعلقًا بي. يا لهم من أغبياء، أولئك الذين يموتون كل يوم بحثًا عن الحياة.

أخشى مشاهد الموت، أنا التي أحزن على موت أي حيوان، حتى أنني فكرت يومًا في أن أصبح نباتية قبل أن تطلب مني أمي أن أشوي رأس خروف مذبوح

في فناء البيت. أمقت هذه الغريزة البشرية في البقاء، لماذا يريد جنسنا البغيض السيطرة على كل شيء، على الأرض، على الحيوانات، على الموارد الطبيعية، حتى على بعضهم البعض.

حتى التراب سيطروا عليه، أوقح أمر في الكون أن يعيش البعض على سطح هذه الكرة الأرضية ولا يستطيعون امتلاك شبر منها، ثم يبتلعهم بطنها غبنًا وقهرًا.

قلتُ في نفسي، أنا متيقنة أنني سأقرأ رسالة من طارق هذا اليوم، فتحت بريدي الإلكتروني وللأسف لم أجد شيئًا، لكن عقلي ظل يكرر عليّ أن طارق قريب مني اليوم، بدأت أفتش أدراجي بحثًا عن شيء لكني لم أجد شيئًا، فتحت نافذة الغرفة وألقيت نظرة على الشارع، لم يكن هناك من أحد، هذا محبط، أخذت أفكر أين من الممكن أن أجد رسالة منه، توجهت لا شعوريًا نحو حقيبة اليد وفتحتها، كانت خالية من كل شيء، إلا من رسالة لطارق!!

## ـ الرسالة الثامنة ـ

كانت الأحداث عاصفة هناك في المغرب العربي، حيث ابتدأ الربيع العربي، ولم يبتدئ ربيع حبنا بعد، كنت أقف مثل غيري مشدوهًا بما يحدث، سقط الطاغية، وانكسر الصنم العتيق، وبدأت الحجارة تتوالى في السقوط. لكن رغم الألم والجراح والحروب والموت والسواد، تعود الشمس كل يوم في موعدها المحدد لتنير الحياة من جديد.

أما أنتِ فقد رحلتِ إلى بلاد العم سام، هناك في أريزونا، حيث بدأتِ كشوفاتك الطبية لتحددي موعد عمليتك خلال هذا الشهر. قطعتِ ذلك المحيط الهائل الذي يسمونه بحر الظلمات، وتركتِني أغرق في ظلماتك كالمجنون.

قلت لك مهاتفًا: «سقط بن علي»، لم تهتمي بذلك، قلتِ فقط: «ومتى سيسقط قلبك؟ كم من الوقت سيصمد؟».

حسنًا هل سمعتِ عن الحب المقدر؟ أن تعبثي كثيرًا في صفحات القدر باحثة عن حبٍ لا يأتي أبدًا، لأنك تسيرين في الطريق الخاطئ، يكفي أن تلتفتي مرة واحدة وراءك لتجديه.

سمعت أغنية ذات مرة يقول معناها: «في مكانٍ ما، هناك شخص بانتظارك، شخص سيتقبلك كما أنت دون أن يحاول تغييرك لتصبح هو، شخص ينتظرك ليبدأ حياته، ينتظرك متعجبًا هل ستلقاه يومًا؟».

لا أعلم أي حب ينتظرني، أعلم فقط أنك هنا، وأنه بكلمة واحدة مني قد تتغير حياتك بأكملها!

انقطعت رسائلك عني أسبوعين ثم وصلني منك خبر نجاح العملية، كنت سعيدًا للغاية، انتظرت عودتك بشوق حتى حانت، وعُدتِ كما أنتِ، لم تتغيري كثيرًا، لم يزد حبك لي أو ينقص، أما أنا فقد أوشكت على الاختناق دونك.

سيدتي الغائبة، لو أنني وجدتك في زمن آخر فقط ربما كنت سأحبك دون أن تطلبي ذلك، لو أنك لم تتأخري كثيرًا لكانت يدي تحيط بكتفيك، لكنك لم تفعلي، وجئتِ تحثّينني على الموت فيما أنا أهُمُّ بالحياة.

يا للأقدار، كيف تتلاعب بنا كالدمى، ونحن نسير كالبلهاء، نسعد بانتصاراتنا التي تساق إلينا عنوة، ونحزن على انكساراتنا التي لا مناص من تجرعها.

تنحّ أيها العقل.

لم يعد يمكن أن أتخطاك يا ترف، لم يعد يمكن أن أهرب منك، أنتِ تحيطين بي من كل جانب، كنت أراك كل لحظة تومضين لي في سماء الرياض، تهطل علي ذكرياتك وتُغرِق ثياب قلبي وتُحطم مظلته الصغيرة التي يحتمي بها دائمًا دون جدوى، تنفجرين حبًا فيّ حتى أترنح من أوهامك الجميلة، تأخذينني من غرفتي الصغيرة المزدحمة بك إلى جنة عريضة لا يسكنها سواك.

حقًا إنه لأمر غريب كيف تسكنك روح تبعد عنك آلاف الكيلومترات، وتلفظ أخرى لا تفصلك عنها سوى أمتار!

اليوم موعد وصولك من أميركا.

كنت سعيدًا جدًا لذلك، انتظرت كثيرًا أن تتصلي لكنك لم تفعلي، كنتِ مشغولة جدًا مع أقاربك الذين استقبلوك باحتفال مصغر، أما أنا فاحتفل قلبي بك سرًا.

- اشتقت إليك!
- وأنا أكثر يا طارق، أتعرف؟ كنت هناك أحترق خوفًا، خفت ألا أجدك عندما أعود، خفت أن أكتشف أنك لم تكن إلا حلمًا. أحيانًا نفكر في

أشياء ونصدّق وجودها ونتخيل وجودها لكي نستطيع العيش فقط.

- أنا حقيقة يا سيدتي، أسوأ حقيقة في حياتك!
- بل أجمل، أجمل من أي شيء آخر، أنت لا تعلم شيئًا، لا تعلم كم أنا مجنونة بك، مجنونة برجل ليس لي، لكني راضية بذلك، أريد أن أبقى معك فقط، لا شيء آخر.

كانت الأيام التالية تشغلني عنك كثيرًا، لم يكن الحب ممكنًا في وقت الربيع العربي، كنت أتابع ما يحدث وأطلق العنان للثورات لتجرفني معها، في مصر كان قلبي، لم يكن معك، لا تغضبي فأنتِ ثورتي الصغيرة.

كان اليوم الأخير في ثورة مصر، في الحادي عشر من فبراير، لم تسعني الفرحة وقتئذ، عندما أعلنوا النصر ركضت إليك جذلًا، كنت أريد أن أحتضنك، لا أعلم لماذا، لكني وجدتك كسيرة. وجدت بركانًا يموج فيك يود لو ينفجر بي ثم يحاكم قلبًا ديكتاتوريًا كقلبي، يود لو يجعلني سجينًا لديه أبد الدهر.

كنت أود الاحتفال معك، لكنك لم تكوني مكترثة سوى للحب، والحبّ محرّم في أوقات

الحرب، أقله بالنسبة إلي، أنا الذي لا أستطيع مجاراة هذه المشاعر المتفجرة حتى في الأوقات العادية.

- ساعدني يا طارق، ساعدني كي أنساك، ألست صديقتك؟
- أتريدين مني أن أبتعد؟
- لا، أي شيء عدا أن تغيب!
- لا تسأليني إذن أرجوك.
- فكرت في كل المواقف التي طلبتُ منكَ فيها أن أعترف بحبي، ووجدتها بعضها أصعب من بعض، ومع ذلك لم يلِن قلبك لي، فأيقنت استحالة أن يدق لي.
- لا أدري، أنا خائف جدًا يا صديقتي، سوف تأخذني الدنيا بعيدًا عنك، لا أستطيع أن أكون لأحد، أنا أحاول أن أبقى إلى جانبك لكن الدنيا تقف ضدي.
- وقلبك؟
- سوف تلهو به الحياة!
- أنت جبان! تهرب من الحب وهو أمامك! لا تريد لشيء أن يشغلك عن دنياك، لم تعتبرني

حتى مشروعًا من مشاريعك الكثيرة، بنيت سورًا كبيرًا وقتلتني بكل ما فيك! قلتُ لك من قبل لا أستطيع أن أجبرك على شيء، لكن قلبك يا طارق يستحق أن يعيش حياته، لماذا تهمله وترضي كل شيء فيك إلا هو؟

- . . .

- أنا التي ستعيش على سرابك، أنا من عشتك حلمًا وألمًا وفرحًا، أنا التي سافرت لأجلك وعدت لأجلك، لا أريد أن أشغلك عن طموحاتك وأحلامك من أجل حلمي الصغير، أنا اخترت أن أبتعد حتى ترضى، وسأكون كل يوم في انتظارك، أنا أحبك يا طارق، أحبك بجنون!

- وأنا أحبك أيضًا!

- ماذا قلت؟

- أنا أحبك! أقسم أني أحبك!

- قلبي يدق بقوة، هل أنا أحلم؟

- ليس حلمًا يا ترف، أنا أحبك.

لم يكن حلمًا ذاك اليوم، لم يكن إلا الحب، لم يكن إلا نحن، لم يكن سواي، أنا الذي اختبأت مرارًا

عن نفسي حتى بتُّ أنسى من أنا، لم أعد أطيق تلك الأقنعة البلهاء، لم أعد خائفًا ثانية.

النور الذي يبعثه فينا الحب لا يمكن أن تطفئه رياح القدر.

أغمضت عينيّ فرأيتها أمامي، سعيدة جدًا، تكاد تجنّ من الفرح، وكنت مثلها، لكن سعادتي مختلطة بخوف، تردد، راحة، قلق، مشاعري متضاربة، كما هي بداية أي حب. لا أعلم أيها ستطغى على أخواتها.

إحساس غريب، كل طريق يؤدي إليها، كل خطوة وكل ارتعاشة قلب، شيءٌ ما تغير، لا كلمات تصف ما أشعر به، أخشى من الأيام، أخشى أن كل ما يسعدني اليوم سيصبح خنجرًا يطعنني غدًا.

فتحت مفكرة صغيرة وكتبت: «اليوم.. قلت.. لها.. أحبك».

فلتهدأ الأنفاس المرهقة، ولتهدأ الأحلام، لأنام.

~ **طارق**

❀ ❀ ❀

لقد قال لها أحبك!

كنت سعيدة بأنه اعترف لها، لكني لم أنكر غيرتي مما جرى، تمنيت أن يقول لي أحدهم «أحبك»، تمنيت أكثر أن يكون طارق، كم أنا طفلة إذ أغار من شخصية كرتونية ليست مرسومة إلا على الورق!

لماذا يقولون إن الحب سيىء؟ لا شيء أجمل من ذلك. لا شيء أجمل من أن يهرب اثنان من صخب الكون إلى مكان لا يرتاده سواهما، ذلك التمازج الروحي بين جسدين، تلك المشاعر المختلفة، يقولون إنها قد تجعل المحب يقفز فرحًا عند سماع اسم حبيبته، لا أعلم، لم أختبر ذلك الشعور قط.

أريد أن أحب، هذا ما خطر لي. أريد أن أسمع كلمات الغزل التي يرميها الشعراء كل حين في أسماعنا، أريد أن أقفز إلى السماء حين يبتسم لي ذلك الحبيب المجهول، هل هذا كثير؟

كنت ماثلة أمام المرآة وأنا أخاطب نفسي: لماذا أنا هنا؟ أنا هنا في غرفتي وحيدة بينما يتعانق حبيبان محظوظان في هذه اللحظة في مكانٍ آخر. لماذا؟

كانت أمامي عدة أوراق مبعثرة وإطارات صور

فارغة أتوق إلى ملئها، عطور منسية لم أفتحها، كلمات وجمل لا معنى لها مكتوبة في مذكرة على طاولتي، أمسكت مرة أخرى برسالة طارق، كنت أبحث عن تلك الذكريات الضبابية التي تختبئ بين الكلمات، في المسافة الصغيرة بين الكلمة والكلمة كانت تزدحم أطنان من المشاعر، في هذا الفراغ المتناهي الصغر يمكن أن تولد آلاف الجمل ثم تموت حتى قبل أن نشعر، أود أن أملأ هذه الثقوب التي تم تركها فارغة. أن أجعل الكلمات تصبح أجمل أمام الناس عندما تخنقني سرًا. لا يوجد هواء في الكون يكفي لسباق أنفاسي المتلاحقة وأنا أحاول العيش قبل أن تخنقني قيودي.

الحياة بدت موجعة عندما وصلْتُ، وكأنها تنتظر خروجي لها لتستقبلني بصفعة. ثم أصبحَتْ أكثر وجعًا وأنا في سعيي المتلاحق لتجاوزها. وأنا أسير لاعقة جروحي كقطة لا تفهم لمَ يؤذيها الأطفال في الشارع؟ لم أفهم بعد أن الشر في هذه الحياة لا يتعمد الوصول إلي شخصيًا، كل ما في الأمر أنني ظهرت في هذه اللحظة من الزمن في مكانٍ ما لا يفترض بي الظهور فيه.

كان الوقت عصرًا، قطع حبل أفكاري طرق

أختي مها للباب بحماسة وهي تقول: «سلمى، افتحي الباب لدي خبر سيسعدك!». سارعت لأفتح:

- خير انشالله، وش عندك؟
- خبر بمليون ريال!
- ماذا؟ هل ستتزوجين وأرتاح من إزعاجك؟
- لا! أبي سيسافر إلى دبي في رحلة عمل بعد أيام وقال إنه سيأخذنا معه بما أن إجازة منتصف العام ستكون قد بدأت! وخمّني ما هو أجمل؟ لن يسافر سوانا مع أبي وأمي!
- ماذا؟ رائع! أحتاج فعلًا للسفر فقد أكلني الملل في هذه المدينة!

كان الأمر رائعًا بالنسبة إلي حيث أننا نادرًا ما نسافر، حتى أننا نقضي أحيانًا سنوات دون أن نبرح مدينتنا هذه، صحيح أن دبي مكتظة دائمًا بالسعوديين، لكني أحبها بسبب البحر، لا شيء في هذا الكون يوازي عظمة البحر.

خطر لي هاجس طارق ورسائله، كيف سيراسلني؟ هل سأنتظر لأجد كومة رسائل منه في غرفتي؟ أو أنه سيعرف بأمر سفري ويراسلني عبر بريدي

الإلكتروني، لا يهمني على أية حال، فلن يكون هناك وقت للتفكير فيه أثناء سفري.

لم تكن إلا أيام وأنا أقف أمام شاطئ دبي بخشوع، عظيم هذا البحر، كنت أتأمله وأنا أتساءل، ماذا يكون هناك خلف هذه الأمواج؟ كم من أيدٍ تلوّح مودعة؟ وكم من أيدٍ تجدّف راحلة؟ كم من دمعةٍ سقطت في جوف البحر؟ وكم من قلبٍ ينتظر الآتين على الضفة الأخرى؟

لم أكن مهتمة بالأسواق والأبراج الشاهقة والاحتفالات العارمة في دبي هذه الأيام، البحر فقط، وحده من يهتم بي، يستمع إلي، أشعر به يموج عاتيًا حين يموج صدري بالأحزان، ثم ما يلبث أن يهدأ حين أزفر آخر زفرات الأنين، وأستكين.

عبّأت حزني كله في زجاجة ثم وبالطريقة التقليدية ألقيت بها على أمل أن تتلقفها الأمواج بعيدًا عن أيدي العرب، ربما تقبض عليها يد هندية أو إيرانية، أو من يدري ربما تصل بعد سنوات إلى شاب أسترالي وسيم، أو عاشقة ماليزية حزينة. اضطرب البحر وزمجر في وجهي وكأنه يبادلني الكلام، تخيلته يقول: «هل تريدين أن أنقلك إلى جزيرة ما؟ أو ربما

إلى بلد تستحقين العيش فيه كما تريدين؟ أتريدين أن أرفع أمواجي عاليًا وألتهم شخصًا ما؟». ضحكت له ضحكة حزينة ثم أشحت بوجهي عنه وكأنني خجلة من شكواي المتكررة له.

كانت الأجواء الباردة تعجّل من عودتنا إلى الفندق مساء، حيث نسكن في طابق علوي يطل على الخليج، حصلت على الإطلالة الأجمل، حيث أستطيع التحديق دومًا عبر النافذة نحو البحر، كنت أجاهد للنوم قبل أن ألمح ورقة مكرمشة على طاولة مجاورة، تفقدتها بسرعة وتجمدت في مكاني حين عرفت ما بها!

إنها رسالة جديدة من طارق!

يا إلهي! كيف عرف بأمر سفري؟ وهل هو مجنون ليطاردني إلى هنا! بدأ الأمر يصبح مخيفًا، هل أنا أمام رجل معتل نفسيًا، أو محب ربما؟ أو لعله يعتقد أنني حبيبته! لا أدري، لا أدري، بدأت أخاف من كل شيء حولي، هل أخبر أبي؟ لكن الموضوع محرج كثيرًا فرسائل الحب ليست شيئًا معتادًا لدينا، ثم إنني أخشى أن أقابَل بمزيد من التضييق على حريتي.

لم أعرف ماذا أفعل!

❀ ❀ ❀

# (7)

## ـ الرسالة التاسعة ـ

ماذا جرى لي؟ كيف سقطت بهذه السهولة؟

أنا من كان يضحك على أحاديث العشق والعشاق، ومن يستغرق في التقاط أضواء الحياة، أصبحت أفتش بشراهة عن موتٍ مصنوعٍ بعناية! يالفداحة الخطأ، لقد أحببنا، أحببنا يا ترف، من يصدق ذلك؟ أنا لست كومة من القش لكي أهجرك أكثر، استسلمت أخيرًا.

ولكن مهلًا، ألم تقولي لي ذات وجع: يتعثر في الحب من يتقن الحياة!

لقد تعثرت بك يا سيدتي، تعثرت حتى دميت قدماي في دربك، يا لك من وردةٍ مسمومة، تنفستك يومًا واحدًا ولم ينجّني منك بعد ذلك شيء قط!

كان يومًا سعيدًا على أية حال.

مرضتُ بعده يومين، ومرضتِ أنتِ! كانت المرة الأولى التي أمرض فيها بسبب أحد ما، أي أحد، كنت أفكر في ما حدث، كيف أخطأت، كيف تجرأت أن أخترق كتاب القدر وأكتب به بضع ورقات عنك، كيف لي أن أطلب الخلود معك وأنتِ لا تملكين إلا الفرح المؤقت، ولا تجيدين الحياة كثيرًا.

أتيتك بعد يومين لأقول: اليوم عيد الحب، كل عام وأنتِ بخير، لم أعترف يومًا بهذا العيد، لكني أجدك اليوم فيه تتسلقين أسوار الوجود وتطلين باستحياء من بعيد، ثم تهمسين لي بحذر: أحبك.

لم أكن متيقنًا كثيرًا من شعوري وكنتِ تعرفين ذلك، فكتبتِ لي: «أيها المغرض، ما أخبارك؟ اممم لست متيقنًا من شعورك نحوي، صحيح؟ أحس بأن خوفك من ابتعادي أثّر فيك وخفت أن تبتعد عن صديقتك التي أحببتها صديقة، أعلم أنك نادم، اسمعني يا طارق، أنت حبيبي وروحي لكني لا أريد سعادتي على حساب سعادتك، سأكون كما أنا وستكون كما أنت، لا تجبر قلبك، فكر وأخبرني بقرارك، لن أغضب».

لا أعلم أي شعور انتابني وقتئذ لكني انجرفت

مع عقلي سريعًا، لم أحفل بقلبي، كتبت فورًا: «قبل كل شيء يجب أن تفهمي أني عندما قلت لك أحبك، كنت أعني ذلك، ربما استعجلت، ربما لم يكن الوقت مناسبًا، لكني كنت أعنيها، لا أعلم، ربما أنا خائف من الحب، أو أنني لم أفهمه جيدًا، لا أعلم يا سيدتي ما الصواب، أعلم أنني أفتش عنك كثيرًا، وأراك في كل كلمة حب أو أغنية مارقة أو لحظة مسروقة من الزمن، لا أعلم يا سيدتي أصواب ما أنا عليه أم خطأ، قلبي معك لكن عقلي مع أشياء أخرى، أنا لم أختبر هذا الشعور من قبل، وتقتلني فكرة أن هناك من يحبني ويعتبرني كل وجوده، ربما يجب ألا أجبر قلبي كما أخبرتِني، لا تعتبي على رسالتي الضبابية، أخبريني أنتِ، ماذا أفعل؟».

جئتِني يومئذ وقلتِ لي بانكسار:

- لا أستطيع أن أراك بهذا التشتت يا طارق، لقد قررت عنك، أنا وأنت يجب أن نكون صديقين، هذا ما أراده الله لنا. لا تحملني ذنب قلبك.
- حقًا هل أنت راضية بذلك؟
- قلتُ لك إنها كانت لحظة من حلم وها أنا قد أفقت. كنت أعلم ذلك، ابتعد يا طارق، ابتعد

عني، اذهب لحياتك فالكل ينتظرك هناك، يكفيني خجلي من نفسي.

- ليس ذنبي يا ترف، تعلمين ذلك.
- لا أريد شيئًا منك، عش حياتك كما تريد، وسأرحل.. كنت أظن أنك اخترتني وأحببتتي، يا لسذاجتي، ويا للوهم كيف يرفعك إلى سابع سماء، ثم يهوي بك إلى سابع أرض.
- هناك أشياء كثيرة جميلة في الحياة غير الحب.
- قلتَ لي إنه أسعد يوم في حياتك!
- لم أكن أكذب، صدقيني!
- وهل الحب بهذه السهولة؟ أحبك اليوم، وغدًا تقول ارحلي!
- ...

انسحبت خجلًا، لم يكن كلامي مقنعًا حتى لي، لم أكن أستطيع أن أجعلك تفهمين أن الدنيا ستأخذني بعيدًا عنك، أنك لستِ لي، ولن تكوني كذلك يومًا.

أردت أن أترك لقلبي نوعًا من الحرية، لكنه أوقعني فيك. لم أكن أستطيع إلا أن أحبك! قلتِ لي بعد أيام من تلك الحادثة:

- اشتقت إلى صديقي القديم طارق! اشتقت أن

أحكي له عنك! أن أسأله لماذا خيّب ظني؟

- أخاف أن نفترق يا جميلتي.
- أعطني كفوفك واسمعني، الحب شعور أقوى مني ومنك، ربما نفترق، ربما نتعذب، ربما نموت، لكن ما أنا متيقنة منه هو أننا معًا الآن، ولا يستطيع أحد أن يسرق لحظتنا هذه! ومع ذلك أنا مستعدة أن أكون ما تريده.
- ليست مسألة مستعدة، أنتِ ماذا تريدين؟
- هل تريد أن تعرف قراري النهائي يا طارق؟
- بالتأكيد!
- قررت أن أخطبك من أهلك وأتزوجك!

ضحكنا كثيرًا، لم نعبأ بتنبيهات الزمن، لم نقرأ الوصفة التحذيرية المكتوبة بخط صغير على ترياق الحب: «هذا الدواء قد يسبب أعراضًا انسحابية خطيرة! لا تتناوله يا أحمق!».

قررت أن أكتب مذكراتي، سأكتب ما قلناه اليوم، وسأكتب أنني عندما ذهبت إلى أحد الأصدقاء وقلت له أنا مريض، ودوائي تملكه امرأة، قال لي ببساطة: «أنت عاشق يا صديقي».

سأكتب أننا اتفقنا أخيرًا على أن نحب.

لن أتردد ثانية، لن أفوت الفرصة من يدي، مازلت أتذكر أغنية كورية تقول: «إذا كنت مترددًا فإن الفرص سوف تتخطاك.. في مرة يغلق المستقبل في وجهك، وفي مرة ودون أن تدرك يظهر أمام عينيك».

لا يمكن أن يكون وجودك إلى جانبي عبثًا، لا يمكن أن تكوني إلا كنزًا ألقاه الله إلي من السماء، ولن يمكنني إلا الاحتفاظ بك، حتى يقرر الزمن موعد رحيلك.

~ **طارق**

❀ ❀ ❀

وضعتُ الرسالة، وفتحت مصراعي عقلي للأفكار الهوجاء، تبًا لهذا الطارق، إنه جبان! «الحب للشجعان» هكذا يقول نزار. لن أحب رجلًا مثله، أريد ممّن يحبني أن يكون هو من يقول أحبك أولًا، لا يمكن أن أشحذ حبًا من أحد.

كنتُ أنظر عبر النافذة الزجاجية الكبيرة، الساعة تقارب الواحدة، سيارات قليلة تعبر الشارع المجاور، امرأة تسير واضعة يدها على كتف رجل يحاذيها، طفل يسير سريعًا ليلحق بأمه، رجل يضع سماعات كبيرة على أذنيه وهو يرقص غير مكترثٍ لشيء، تساءلت وأنا

أراقب الشارع الفسيح إلى أين يمضي كل هؤلاء البشر، كم هو مضحك أننا نسير عبر الأيام دون أن نفكر. من وضعنا في هذا الطريق؟ إلى أين نتجه؟ لماذا نحن موجودون الآن أصلًا بهذه الكيفية؟

فكرت في السيارات التي تسير بعضها خلف بعض في حركة متناغمة، تتجمع في ثلاثة صفوف خلف إشارة ضوئية لثوانٍ ثم تنتشر في ثلاثة اتجاهات، يخرج أحد السائقين يده ملوّحًا بغضب في وجه رجل لا يعرفه ثم يمضي.

حركة دؤوبة في مدينة تعج بالحياة، ألوان وأضواء معلقة فوق العمائر والمحلات، أبراج تنتصب في كل بقعة لتنظر إلى الأرض من الأعلى، لِمَ كل هذا؟

في مكانٍ ما خلف هذا الأفق، وراء أضواء المدينة الصاخبة، أعلم أن هناك شيئًا أفضل.

كنت منهكة كثيرًا، لكني لم أستطع النوم تلك الليلة، عاد الدوار والحمّى، حتى أن أنفي أخذ ينزف فترة بعد أن استيقظت من غفوة صغيرة جدًا، مازلت أحاول التفكير في كيفية وجود هذه الرسالة في غرفتي، هل يمكن أن يكون هذا كله من تدبير أختي الصغيرة؟

كانت الأيام تمضي سراعًا في دبي، كنت لا أنام أكثر من ست ساعات في اليوم وأستغل بقية اليوم في التسوق والتفسح بحرية خصوصًا حينما يكون أبي في عمله الذي سافر لأجله.

كنت في الممشى المجاور للفندق حين كان أحد الصبية يتربص بي من بعيد، اقترب مني شيئًا فشيئًا حتى أصبح محاذيًا لي، زدت خطواتي سرعة وازدادت سرعته أيضًا حتى اقترب مني، ثم وبحركة لا شعورية ضربته بحقيبة اليد التي أحملها، سقط أرضًا، وسقطت من يده عدة أوراق، لا أدري لماذا أحسست أنها رسائل طارق، سحبت الأوراق فورًا وفتحتها. للأسف لم تكن سوى أوراق لا قيمة لها، أحسست بالخجل من نفسي، هربت سريعًا وتركت الصبي على الأرض والناس ينظرون بذهول.

أنظر من نافذة الفندق فأجد الشوارع أسفل مني، الأبراج الشاهقة عن يميني ويساري، والبحر تلوح أمواجه أمامي، ولكن لا أعلم لماذا تتغير مشاعري تجاه الصورة البانورامية نفسها هذه، ففي الصباح أرى الصورة جميلة، كل هذا الصخب في الأسفل، الماضون إلى أعمالهم، السفن البعيدة، والذين يلعبون على الشاطئ، المكان يعج بالحياة.

وفي المساء قبل أن أنام أرى الصورة نفسها ولكن بمشاعر أخرى، سواد البحر الغامض، التماعات الأضواء، الهدوء، وكأن كل شيء يسير بالحركة البطيئة، وعقلي يلتهم كل تلك الصور ويترجمها إلى مشاعر أفهم بعضها وأجهل أكثرها.

كانت الأيام الجميلة توشك على الانتهاء، أعددت حقائبي وطرت إلى الرياض، لم يكن هناك شيء يوازي هذه الكآبة، أن أعود إلى الرياض.

كنت على وشك النوم بعد دخولي المنزل وارتمائي على سريري، لم يكن شيء ليلفت انتباهي، لكني لمحت على طرف الطاولة المقابلة رسالة جديدة من طارق!

لماذا أنا متفاجئة؟ بدأت أعتاد الأمور التي يقوم بها لمراسلتي، هل لأختي مها يد في الموضوع، لا أظنّ، فأنا آخر من أقفل الغرفة وأول من فتحها بعد عودتي. ولكن من يكون قد وضع الرسالة؟ وهل فعل ذلك أثناء سفري؟

فتحت الرسالة بكسل وقرأت:

## ـ الرسالة العاشرة ـ

ألقيت بكلماتي هذه في محيطٍ هائل، فهل ستعثر عليها يومًا ما؟

أثناء قراءتي سمعت طرق الباب، ثنيت الرسالة وأخفيتها بسرعة تحت أحد الكتب، كانت أمي تريد محادثتي، وبعد نصف ساعة من الحديث معها نسيت أمر الرسالة ونمت!

كانت خمس ساعات من النوم، لم تكن كافية بالنسبة إلي لأصحو بنشاط، تذكرت الرسالة وقفزت فورًا لقراءتها، ويا للعجب! لم أجدها!

بحثت في كل مكان كالمجنونة لكني لم أجد شيئًا، وكأن السماء قد ابتلعتها، كدت أموت خوفًا، ماذا لو وقعت في يد أبي أو أخي منذر؟

سألت أختي وسألت الخادمة ولم أجد شيئًا، ثم استسلمت أخيرًا، كان كل ما يمكنني فعله هو أن أدعو الله ألا تكون قد وقعت في اليد الخطأ.

عدت إلى غرفتي، فتحت جهازي المحمول، وإذ

بشخص أعرفه جيدًا يتصدر قائمة الرسائل الإلكترونية لدي، طارق!

❀ ❀ ❀

## ـ الرسالة الحادية عشرة ـ

إليها:

الحب ورقة معلقة بعناية في حديقة الله، لا تحاولي تمزيقها !!!

كنت أحضّر لدراستي الجامعية، وكنتِ تحضّرين شهادة وفاتي، اليوم بدأت أول أيام دراستي، كنتِ خائفة جدًا أن أنشغل وأنساك:

- تعمل في الصباح وتدرس في المساء، متى ستكون متفرغًا لي؟
- لا تخافي يا عزيزتي، قليل من التنظيم وستكون الأمور بخير.

كنت معتادًا ذلك، لا أحب أن أترك لنفسي وقتًا للفراغ، أحب أن أكون مشغولًا بشيء، أي شيء، لكنك اقتحمت حياتي عنوة، وألصقتِ نفسك على واجهة قلبي، لذا بدأتْ الأشياء الأخرى تتناثر أمام

هيبة حضورك، عملي، جامعتي، مشاريعي، أهلي، أصدقائي، كل شيء كان يتضاءل أمام طوفانك.

كنت مشغولًا عنك فأصبحت مشغولًا بك، أنتِ التي تقولين لي دائمًا: «أنت لو تشوفني أموت تقول اصبري اخلص اللي بيدي».

لم أحببك ترفًا، بل ألمًا، لم أوجدك لأعبث بأوراق القدر المتسخة، عثرت عليك هكذا، مثل تشرين، مثلما يأتي شتاؤه فجأة، مثلما يسقط المطر دون أن ينتبه أحد لقدومه، مثله جئتِ أنتِ.

قلتِ لي ذات يوم:

- طارق، أنا لم أعد أستطيع أن أنظر إلى عيني أبي!
- لماذا؟ تحسين أن وجودي معك خطيئة؟
- لا أعلم، أحس بأنني قد تماديت معك.
- ولماذا تخبرينني بهذا الآن!

هكذا النساء! وأنتِ لستِ مختلفة عنهن، تبحثين عن مبرر لأخطائك، تريدين أن تتخلصي من عقدة الذنب، أو أن تجدي مقبرة كقلبي تدفنين خطاياك فيها لتنامي مرتاحة البال.

كل امرأة تحمل من الدهاء ما يمكن أن يجعلها تفعل الأعاجيب، تستطيع أن تقلب دنياك إن شاءت، ثم تعيدها مرتبة إلى سيرتها الأولى. لا يمكنك أن تفعل شيئًا حيال ذلك، أبدًا.

لا أحب نظرة الذنب في عينيك، أن أكون أنا اللص، وأنتِ الضحية، لا أحب التحدث بمنظور الذئب والشاة، الأمور لا تقاس بهذه الطريقة يا عزيزتي، لقد أحببنا، أتعرفين ماذا يعني ذلك؟ يعني أنه لا مجال للحديث من منظور مادي بسيط، ذلك أكبر، الحب يعني أن روح الكون الخالدة تسكننا، تحثنا على الانطلاق إلى الحياة، إلى الطيران، إلى تخطي قوانين الطبيعة البليدة، إلى اكتشاف سر الوجود الأعظم.

وأنا تلك الروح الضئيلة الهائمة في الكون أصبحتُ أعظم من أي شيء آخر عندما عثرتُ عليك، أصبحت أقوى من قبل، يا سيدتي، لا تتعبي نفسك كثيرًا بالتفكير، فجنون أن تفكري الآن، بعد أن وقعنا في الفخ.

لم يكن يحمينا من الإثم شيء، نحن العاشقان في صحراء يرفض أهلها كل حب، لأن قلوبهم ماحلة قاسية، لأننا ولدنا في المكان الخاطئ نستحق أن تنالنا

عقوبتهم، أن تغيظهم نزواتنا الآثمة، أنتِ لستِ بنظرهم إلا قطعة لحم، ولن يحركني تجاهك إلا شهوة. لا تغضبي، ففي مدينة الإسمنت تموت كل الحكايات الجميلة، وتشنق كل محاولات التمرد على جدرانها البغيضة.

قالوا لي كثيرًا: ليس الحب إلا خطيئة، وما المحبون سوى لصوص، يسرقون الشرف والفضيلة. يا سيدتي، الآن فقط أعذرك، فأنا محاط بالخطيئة من كل جانب، مثلك تمامًا.

يا صديقتي..

ليتنا نمتلك زرًا للتراجع كما في حواسيبنا، لكنت تراجعت عن قرارات خاطئة كثيرة، لكنت تراجعت عن حبك الوليد.

ضعنا بمشاعرنا يا صديقتي، أليس كذلك؟ كنا نحب يومًا ونفترق يومًا، لم يكن ذلك سليمًا، الحب يعني أن يخفق قلبك ألف مرة في الدقيقة التي ترى فيها من تحب، وكل ما عدا ذلك محاولات للتسوية.

لا تعلمين ماذا يخبّئ لنا القدر؟ هه! وأيّ قدرٍ قد يكترث لحبٍ ضئيلٍ كهذا؟ يا لغباء البشر، أولئك الذين يتوقعون أنّ أحداثهم الصغيرة تؤثر في حتمية القدر،

لماذا يعتقد شخصٌ ما أن الكون خُلِق من أجله وهو لم يعش فيه أكثر من مائة عام من أصل ثلاثة عشر مليار عام هي عمر الكون!

قلتِ لي: طارق، الكون صغير جدًا لأن يحتمل فرحة عاشقَين، وكبير كفاية ليحتمل كل أحزانهما!

ماذا يعني هذا؟ لا يمكن أن تكوني سببًا لحزني، هناك أشياء أخرى لتحزنني، لا أخطط لأن يكون حبك أحدها، لدي الحياة كاملة لأعيشها برفقتك، أنتِ التي تقولين لي مرارًا: «لا يليق لهذا القلب أن يحزن»، فماذا إذن؟

خائفة؟ يا صديقتي، أعلم جيدًا أن الحياة مخيفة، والمفزع في لعبة الحياة أنها صالحة للاستخدام مرة واحدة فقط. ولكن لا بأس، أحيانًا من الأفضل ألا تكون أيامنا مثالية، تمامًا مثل حبنا، لا يمكن أن يكون جيدًا إلا بألم يعقبه فرح، انخفاض يعقبه صعود، ألا ترين أنّ دقات قلبك تظهر كإشارات ترتفع وتنخفض، ماذا لو كانت إشارة وحيدة مستمرة؟ لكنتِ ميتة.

لم أرد أن أعيش حياة ليست هي بطلتها.

كنت أعيش معها عالمًا آخر من الجنون، ثم بعد

أن نفترق أقول: لا بأس، هي مجرد صديقة! كنت أكذب، لم تكن صديقة، بل هي حياتي بأكملها، تلك الحياة التي قلبتها رأسًا على عقب.

تمادينا بمشاعرنا، كنا نعيش حلمًا ليس لنا، ضحكات مستعارة لا تخصنا، أحببنا أن نعيش حاضرنا لا أكثر.

أصبحت الشمس أكثر إشراقًا، هكذا كنت أفكر، أحببت حياتي معك، كل لحظة تمر كسنة، تغيرت أولوياتي، قبل أسبوعين لم تكوني ضمن قائمة أهم عشرة أحداث تشغل اهتمامي، وصدّقيني، الآن أنتِ على رأس اللائحة!

لم أعد ذلك الطفل المغامر، أصبحت وديعًا، أمشي على أطراف الحلم كي لا يستيقظ، أرفع ستارة السماء وأناجي قمرها، وأرسل تحاياي علها تصلك كل دقيقة.

أخبريني يا سيدتي كيف تقضين صباحك؟ كيف تشربين قهوتك؟ كم يخفق قلبك مرة عند سماع اسمي؟ كيف تربطين أزرار قميصك الفاتن؟ تلك أعظم من أية أحاديث أخرى بالكون.

أخبريني يا سيدتي هل تحسين مثلي أنك مسؤولة

عن قلبين، أخاف أن أرضي أحدهما فيتألم الآخر، في الحقيقة، أنا أعلم أن أحدهما سيذوي، لا أريد أن أعيش حلمًا لسنا متشاركين في أطرافه، لكني أحب أحيانًا أن أعيش اللحظة، أن أسرقها من فم القدر.

~ **طارق**

كان اليوم الأخير قبل بدء الفصل الدراسي الجديد، لذا كان لزامًا علي الاستعداد للدراسة وتوديع أيام الفراغ الماضية، مخططاتي بالخروج مع صديقاتي باءت بالفشل فكلهن مشغولات إضافة إلى أن الأجواء قارسة جدًا في الرياض هذه الأيام. اضطررت إلى المكوث والمساعدة في أعمال المنزل التي لا تنتهي.

أفكار كثيرة انتابتني لكنها لم تنسني قط التفكير في كيفية وصول هذه الرسالة، وهل كان مقررًا لي أن أقرأ هذه الرسالة قبل تلك التي ضاعت؟ بدأت القصة تنحرف عن مسارها وتتعدى قدرتي على السيطرة على الأمور.

أخذتُ أفكر في جملة شدت انتباهي حول عمر الكون الفسيح، وبغض النظر عن أن الكون لم يخلق

من أجلي، فكرة أخرى هي ما تذهلني، فمن بين مليارات السنين التي هي عمر الكون، قد لا أعيش سوى مائة سنة منها على أبعد تقدير، كم أنا محظوظة لأني حيّة الآن، أنا هنا الآن، في هذه الفترة القصيرة من عمر الزمن وهي فرصة لن تتكرر أبدًا، لا يمكنني إلا أن أستغل ذلك!

لا يمكن أن أضيّع الفرص أكثر، بلغت العشرين، وفي أي مكان آخر غير هذا المكان يكون عمر العشرين مناسبًا للتصرف بحرية.

لدي خطة كبيرة جدًا للإيقاع بالحياة، سوف أبتسم!

# (8)

كان الفصل الدراسي الجديد فرصة لكسب العديد من الصداقات الجديدة، الوجوه الجديدة تحمل في نظراتها فرصًا لتغيير بعض الأشياء التي اعتدنا أن نفهمها بطريقة واحدة. الأصدقاء الذين نتعرف إليهم لأول مرة يخبروننا بطريقة غير مباشرة أن الحياة مستمرة، وأن ما كنا نعتقد في الماضي أنه النهاية، هو ليس إلا نهاية لمسار واحد في حياتنا، ومع نهاية كل مسار تُفتح أمامنا عشرات المسارات الأخرى.

عدا الموت، لا توجد نهاية مطلقة لحياة أي شخص، كل ما دون ذلك هي نهايات فرص، هذا هو العنوان الأخير الذي رسمته أمامي بخط عريض على ورقة مكرمشة.

ولكن أية ورقة تنتظرني من طارق مجددًا؟ فكرّت في أن أستبق الأمور وأحاول إفساد مخططات طارق لكن لم أعرف ماذا أفعل، فلا أستطيع مراقبة غرفتي طوال اليوم لأنه يستطيع الاستعاضة عن ذلك بمراسلتي

عبر البريد الإلكتروني. فكرت في أن أبادره بالمراسلة هذه المرة، خفت قليلًا من أن تزعجه محاولاتي المستمرة التطفل عليه وأن يغيّر تصرفي هذا في مسار الأحداث، لكنني قرّرت في النهاية فعل ذلك، كتبت له:

«طارق، أرجوك أن ترد علي وتخبرني أكثر لماذا ترسل إلي هذه الرسائل، أعدك بأني لن أخبر أحدًا، أخبرني بكل شيء أو توقف عن مضايقتي»! صديقتك، سلمى.

أرسلتها بخوف، قد تغضبه الرسالة، وقد يخبرني بما أريد، صحيح أنني طلبت منه التوقف عن مضايقتي لكن كان هذا مجرد تهديد أرجو ألا يستجيب له، فرسائله تروقني بحق، وكلماته تبعث فيّ الأمل دومًا.

انتظرت شهرًا قبل أن يصلني رد منه، ولكنه تجاهلني مرة أخرى وأكمل قصته، وكأنه لا يقرأ ما أكتب له أصلًا!

## ـ الرسالة الثانية عشرة ـ

لماذا كنتِ دومًا في عزلة رهيبة لم يقطعها سواي؟ كنتِ تحاولين منذ صغرك الهرب من كل شيء، من الناس، من الفرح، من الحب، من الحياة!

منذ البدء، كنت فتاة هادئة، وحيدة، لم تك حياتك يومًا مكتظة بالأحداث، لا شيء يعنيك في الكون، لهذا انحزتِ إلى الجانب المظلم من الحياة، لم يكن وجودي ليغيّر تجاعيد الزمن المتراكمة على أرضية بيتك العتيق، لكنني كنت خيطًا أبيض محوكًا بعناية على قماش ضفيرتك القاتمة.

أتذكرين؟ ماذا قلت لك:

- عديني بأن لا تتوقف حياتك علي، سأضع بصمة بسيطة ثم أرحل، أنا متيقن من ذلك.
- لن ترحل، ولن أتوقف عن حبك ما حييت!
- الحياة جميلة، لا تريها بعينيّ فقط!
- أتعلم؟ حتى لو رحلت فلن يتغير شيء، سأعود إلى كتبي، وإلى غرفتي الصغيرة، لا شيء آخر.

لماذا كنت أحس دومًا أنك تعاقبين نفسك لسببٍ

ما؟ تنتقمين من الحياة بطريقتك الخاصة، تزرعين العقبات كي لا تفرحي فرحة مسروقة، لا تريدين أن يغدر بك التفاؤل فتفقدي كل شيء.

حب في الوقت الضائع!

هذا ما كنت أحسه دومًا، ذكرياتك المهشمة لم يكن ليصلحها شيء، أقله ليس أنا، أنتِ حزينة يا ترف، حزينة لدرجة الاختناق، لماذا تشركينني معك، أنا الذي أحب التعلق بأطراف السعادة، وأركض كل يوم نحو الحياة، كنتِ تحاولين إبعادي عنها لأشاركك في تعاستك.

كنتِ تحدثينني عن الموت، وأحدثك عن الحياة.

أعلم أن حياتك قبلي كانت عادية، قلتِ لي إنها روتينية لا شيء فيها سوى حبك لأبيك، قراءتك للكتب، الجامعة، لا شيء آخر. كانت حياتك خالية بالقدر الذي امتلأت فيه الآن بوجودي.

لا تكذبي، أنا أجمل أقدارك، أنا من أردتِ أن تكملي بقية حياتك معه، كنتِ تهمسين باسمي دومًا، كنتُ نومك ويقظتك، حزنك وفرحك، كنتُ كل شيء لك كما أنتِ كل شيء بالنسبة إلي الآن.

كنت أطير كل ليلة معك إلى السماء، أطير في حلم عائم لا أريد الاستيقاظ منه، لا أريد أن أفتح عينيّ ثم أسقط من علٍ. كنا نلتقي كل ليلة، نتحادث، نضحك، نتقاتل، نتعانق، ثم نفترق. كنا نلعب كطفلين تارة، نتطارح الحب كمراهقين تارة، ونتناقش حول كتب تشومسكي كبالغين تارة أخرى.

كنت كالأعمى، أقرأ تفاصيل جسدك الغض بلغة برايل، أتحسسه بنهم كي لا أنساه بعد ذلك، ولم أنسه قط.

كانت لقاءاتنا الخفية تتزايد كل يوم دون أن ندرك عواقب ذلك، ماذا لو وشت بنا الأماكن التي نرتادها، ماذا لو وشت بنا أرصفة الطرقات أو أجراس المنازل المنسية، كل شيء كان يمكن أن يشي بنا في هذه المدينة، كل الأعين قد تلاحقنا وتتهمنا إن أخطأنا مرة. لكن ذلك كله لم يكن ليعنينا، كل النواهي والمحاذير لم تكن لتوقظنا، يا لنا من أغبياء.

أي أزهار حب تلك التي يمكن أن تنمو في حدائق الكره؟

كنت مستعدًا ذلك اليوم لأقلّك دون أن أنتبه لما يمكن أن يحدث. أوقفتُ سيارتي أمام منزلك بوقاحة

ثم ركبتِ، يا لجرأتنا! لم نفطن إلى الرجل الذي كان يراقب المنظر من نافذة المنزل! لم يكن سوى أخيك تميم!

~ طارق

سقطت من يدي الرسالة وأنا أقرأ السطر الأخير! يا للهول، أحقًا شاهدهما أخوها؟ هذه كارثة كبيرة بمقاييس مجتمعنا، قد يحدث أي شيء بعد ذلك، بدءًا بالضرب وانتهاءً بالقتل، لا يمكن أن يغض النظر عما شاهده.

كنت خائفة، أغمضت عينيّ وتخيلت نفسي في موقف تلك الفتاة، بالطبع لن أنجو بفعلتي أبدًا، مجرد خروجي المتكرر يغضب أخي، فما بالك بخروجي برفقة رجل، فتحت عينيّ ولم أستطع تخيل بقية القصة. كم نحن جبانات معشر النساء! نحن من رضينا أن نكون في منزلة دنيا، فكما يقول جبران: «إن القتيل ليس بريئًا من جريمة القتل»، نحن نستحق منزلتنا لأننا رضينا بها.

هربت للنوم خوفًا من الواقع، ثم استيقظت هربًا من أحلامي المزعجة، أسرعت للنزول هربًا من غرفتي

الضيقة إلى الجامعة الفسيحة، ثم هربت من نظرات الطالبات لشكلي المكركب إلى دكتورتي العزيزة التي لا يعنيها مظهري، كنت في حالة هروب مستمرة من كل شيء إلى أي شيء، وكأن شيطانًا يلاحقني طوال الوقت.

قلت بعضًا من الأفكار التي لديّ للدكتورة هدى حين ذهبت إلى مكتبها الجامعي واستقبلتني بترحاب بالغ:

- سلمى، الحرية أن تحرري عقلك من كل الأغلال التي تقيده، أن تتقبلي أي رأي باعتباره يستحق أن يُسمع، وأن تعتبري كلام غيرك قابلًا للصحة حتى تستطيعي إثبات خطئه.

كانت معلمتي تناقشني حول بعض مفاهيم الحرية والديموقراطية وكلام كثير لم أهتم به، سألتها سؤالًا محددًا:

- كيف يمكن أن تكون قصة حب جميلة إذا كانت بدايتها ألمًا ونهايتها فراقًا؟

- هل تتحدثين عن قصة بعينها عزيزتي سلمى؟

- لا.. أنا.. أقصد بشكل عام.

- حسنًا، المشاعر لا تموت ولا تولد من العدم، بل تتحول من شكلٍ إلى آخر، ومن حبٍ إلى آخر، الفراق في بعض الأحيان ليس إلا انتقالًا جسديًا، والنسيان ليس إلا انتقالًا فكريًا، لا تغير هذه الانتقالات والتحولات شيئًا في عالم الروح الأسمى.
- أووه لا أفهم ما الذي تريدين الوصول إليه!
- ستفهمين عندما تحبين، بصدق!

لا أحب النظرة الفلسفية إلى الأمور والتعمق في الأحداث البسيطة، أفضّل أن تكون الأمور واضحة أمامي، أن أحب، أن أكره، أن أغضب، أن أصرخ، كل شيء أفعله ببساطة دون أن أفكر أو أنقّب في ما وراء ذلك. لا يهمني أن أكون على صواب أم خطأ، المهم أن لا أكون شخصية مستعارة، أن أكون أنا.

حتى نظرتي العميقة إلى بعض الأشياء لا تعدو أن تكون نظرة مباشرة إلى الحقيقة من وجه آخر، لا نظرة فلسفية باهتة.

كانت الساعة تقارب الثالثة عصرًا، وأنا مرتمية في المقعد الخلفي للسيارة في طريقي إلى المنزل، الجو رائع في هذا الوقت من شهر مارس، ولكن

المدينة المتآكلة لم تكن تعبأ بهذا، إنها مدينة حزينة، أشعر بذلك حقًا، مدينة تشكو من تراكمات عشرات السنين من الكآبة في مجتمع يعج بالمحرمات التي لا ترتكب إلا سرًا.

رأيت تجاعيد الحزن في الشوارع المتكسرة، بقايا الشجيرات التي غلبها العطش، المآذن العتيقة التي لم تَعُد مزارًا للحضارة، كل شيء فيها وكأنه يخاطبني للمرة الأخيرة، لم تعد تلك مدينة للحياة، الموت ينبعث فيها من كل مكان، والناس يعيشون فيها وكأنهم لا يعيشون. أكاد أقسم إني سمعتها تحدّثني قائلة: «لقد قتلوني يا سلمى، قتلوا أنفسهم»!

كنت متلهفة لمعرفة بقية قصة طارق، من يدري، ربما يفترقان وأكون أنا حبيبته الجديدة، فكرة باذخة أن أحب شخصًا مثله، رغم أني لا أحب أن أبني سعادتي فوق مقبرة حب ما.

كنت في طريقي للنوم قبل أن ألمح أوراقًا منتثرة على الأرض، هذه المرة وجدت رسالتين منه، وكأن أحدهم كان على عجلة من أمره وسقطت منه، التقطتها ورتّبتها ثم بدأت أقرأ:

❀ ❀ ❀

## ـ الرسالة الثالثة عشرة ـ

إليها:

كانت الأيام الجميلة على وشك أن تمضي، هكذا أحسست عندما انطلقنا معًا لنعيش الجنون المطلق، لنقهقه ثم نبصق بصقة مدوّية في وجه الحزن، لنخبره بأننا عشنا هذه اللحظات، وما من شيء ليغيّر هذا الأمر، أردنا أن ننقش ابتساماتنا إلى الأبد، ولم ندرِ أننا نغرس ملاعقنا في وجبة سامة كالحياة.

- طارق، عشتُ معك أجمل يوم في حياتي!
- تقصدين أجمل يوم حتى الآن.
- لم أفهم!
- عشتِ معي اليوم أجمل يوم في حياتك، وستعيشين غدًا يومًا آخر ليصبح أجمل يوم في حياتك، هل سيكون ذلك مع رجل آخر ثم يصبح يومي منسيًا مثلي؟

كانت مشاجرة بسيطة فقط، لم تكن تدري أي مشاجرة تنتظرها مع أخيها حينما تعود، كانت عيناه تتوقدان شرًا حينما بدأ يحقق معها، كان يسألها بصوت عال أين كانت ومع من، وكانت تستعين بالصمت.

استجمعت قواها ثم اختلقت كذبة بائسة، أخبرته

أنه أخو صديقتها، وأنهما جاءا ليقلّاها إلى السوق، لم يكن لها سلاح غير الدموع والقسم على صحة قصتها حتى صدّقها على مضض.

صدّقها هو، لكنّي لم أصدّق يومًا أنك سترحلين، لم أصدّق يومًا ما تقوله أشعار الفراق، تلك الممحاة الكئيبة التي يزيل بها الشاعر مغامراته التي لا يريد لها الخلود، ليس الفشل إلا اختيارًا ذاتيًا، هذا ما أردده دائمًا، وليس الحزن إلا تعبيرًا عن ذاك الفشل المتعمد.

لكني فشلت في الشعور بشيء غير الجزع عندما علمت بما جرى، نعم، الجزع، يالها من كلمة معبرة لما اعتراني. قلتُ لك يا ترف حينها إني خائف عليك، والحقيقة أني كنت خائفًا على كلينا، لم يكن ذلك إلا منبهًا يقول لي أن أستفيق!

- هل الحب خطأ يا طارق؟

كان سؤالًا مباغتًا، وكانت أمامي ثانيتان فقط للتفكير في جواب مقنع لا يربك أفئدتنا الجَزِعة، لكني انتظرت خمس ثوان، ثم عشرًا، ثم عشرين، ولم أجب، وكأن لساني قد انعقد أمامها حتى أجابت هي ودمعتها تسبق جوابها:

- الحب ليس إلا نحن، ليس إلا الحياة، لا تقلق يا طارق، فالحياة لا تتوقف، وكذلك حبنا. لن يفرقنا واشٍ أو مجتمع.

ما أجمل كذبك، وما أتفهه، يا جميلة، أعلم أني سأعاني، وأعلم أني سأجثو يومًا على مقبرة قلبي وأشتم ذلك الضعف الذي انتابني عندما قلت لك لأول مرة: أحبك، أعلم هذا كله، ولا تعلمين شيئًا.. تبًا للحب.

كان الوقت ليلًا وأنا أسير وحيدًا في ظلمات المدينة، هذه السماء السوداء التي لا تخدشها سوى النجوم والأضواء البعيدة، حتى القمر توارى خجلًا مني، أكملت سيري على حافة المدينة الصاخبة، يا للكآبة، كيف أحزن وأنا أطالع منظرًا كهذا يمتزج فيه الليل بأضواء المباني والسيارات؟ كيف تضيق نفسي وأنا أتنفس هواء باردًا ساكنًا كهذا؟ أشحت برأسي قليلًا وأنا أردد: ضجيج الأرواح المتعبة يفوق كل شيء.

ألف حكاية تختبئ في عينَي هذا الليل، ألف مغامرة وألف أسطورة لا يعلمها أحد، كلها ستمضي وتصبح سرًا منسيًا يطويه النهار، حتى قصتنا نحن، أحلامنا وتطلعاتنا كلها أسرار لا تتناقلها الألسن، كل

ثانية عشتها معك تستحق أن تكون رواية يقرأها الملايين، لكن ذلك لن يحدث، لن نكون سوى حدث آخر في الكون لا يعني شيئًا لأحد.

ثم يعود السؤال الذي يلّح عليّ: هل الحب خطأ؟

ما أقسى الإجابة، أستطيع أن أسطر آلاف الكلمات محاولًا الإجابة عن سؤالٍ أزليّ كهذا، وأستطيع أن أملأ ذهن كل من يسألني بفلسفات لا حصر لها حول قدسية الحب، لكن الجواب المختصر الذي قد أستطيع أن أتبناه وأصرّح به أمام الجميع في مدينة الخطيئة هو: نعم.

لم يكن سؤالك أصلًا وجيهًا يا عزيزتي، كان حريًّا بك أن تقولي بدلًا من ذلك: هل يستحق منّا الحب كل هذا؟ كنت سأجيبك في أقل من ثانية وأقول إن الحياة مخيفة جدًا لكنها تستحق المغامرة، وكذلك الحب.

عدت منهكًا إلى فراشي، كان اسمك يتراقص في ذهني، سأحلم بك الليلة، هذا مؤكد، والجميل في الأحلام أنها لا تحتاج سوى إلى سرير، وقليل من الحظ.

كان حظي جيدًا.

~ **طارق**

انتهيت من قراءة الرسالة الأولى، وهممت فورًا بقراءة الرسالة التالية لولا دخول أختي مها المفاجئ، حاولت بارتباك إخفاء الرسائل لكنها لمحتها في يدي، خطفتها مني وهربت وهي تضحك، لحقت بها فورًا حتى قبضت عليها في غرفتها وهي ترفض إعطائي الرسائل!

- رسائل حب إذن!
- ليست رسائل حب، أعطيني إياها وإلا!!
- ليست رسائل حب؟ «ما أجمل كذبك وما أتفهه، يا جميلة» ماذا تسمين هذا؟
- أنتِ لا تفهمين، هذه الرسائل ليست لي، إنها موجهة إلى امرأة تدعى ترف.
- ترف؟ ما هذا الاسم الغبي؟

لم يكن لدي حل آخر، أخبرتها بالقصة كاملة، كانت بين مصدقة ومكذبة، لكنها لم تخفي حماستها

الشديدة في معرفة نهاية القصة حتى أنها أصرت أن تقرأ معي الرسالة الثانية، وافقتها، لكني نبهتها ألا تخبر أحدًا أبدًا بما قلته لها.

قرأنا معًا:

## ـ الرسالة الرابعة عشرة ـ

إلى الغرباء الذين نلتقيهم دقيقة في مصعد مبنى مغمور لن نزوره ثانية، إلى الذين نلتقيهم في ردهات الانتظار بصالة المغادرة، أود أن أقول كلامًا لا يحفل به أحد، أن أحكي عن قيودي التي تنهكني دونك، أريد أن أشتمك دون أن أندم، ثم يمضي كل مسافرٍ في طريقه.

إلى الغرباء الذين يقاسموننا الرحيل، إلى أصدقاء اليوم الواحد، إلى رسائلهم التي لا يقرأها أحد، إلى حبات المطر العالقة في مظلاتهم، إليهم فقط أريد أن أبوح بأشياء كثيرة.

إليهم فقط أريد أن أحكي عن دهشة الحياة، تلك الدهشة التي تجتاحنا عندما نفعل الأشياء للمرة الأولى، تشبه تعابير الطفل عندما يرى التلفزيون مثلًا

لأول مرة، أو تلك المشاعر التي يجربها مبتدئ يمارس القفز المظلي من ارتفاع شاهق، إنها أشياء لا يمكن أن تتكرر مرتين، ولا يمكن الشعور بها على المستوى نفسه مرتين. تلك الأمور هي ما تجعل المغامرة المرعبة ممتعة.

مثلها كانت كلمة: أحبك، كانت مدهشة، أن أقول لك وللمرة الأولى: أحبك، هذه لحظة مدهشة. كل المرات الأخرى التي قلتُ لكِ فيها أحبك كان شعوري فيها أقل من أحبك الأولى. نسخ مصغرة من اللحظة الأولى لا أكثر.

حبك كان حقيقيًا، حقيقيًا جدًا لدرجة الخيال، كنتِ أنتِ محيطي الذي أهيم في أمواجه العاتية دون جدوى، أبحث عن الشاطئ ولا شاطئ، أجدّف بيديّ العاريتين وأنا أدعو الله ألا أجد خلاصًا من ذلك.

حبي لك يشبه الأغاني العراقية العتيقة، يشبه صوت حميد منصور وهو يقول:

**تجينا، تجينا، ردتك تجينا**
**راحت وجت الايام، و ردتك تجينا**
**وعلينا، علينا، بس مرّ علينا**
**وتورّد الأحلام، من تمرّ علينا**

كيف تستطيع أغنية ما أن تعيدك عدة سنوات إلى الخلف بالشعور نفسه والتفاصيل نفسها، ثم تتركك تترنح شوقًا.

بعض الأغاني يمكن أن تكون بمثابة نقاط عودة، تستطيع استخدامها لتذكر سلسلة من الأحداث دون جهد، لذا فقد اعتدت بعض الأحيان أن أسمع أغنية ما عشرات المرات حتى ترتبط بذكرى معينة، وهكذا عندما أريد تذكر كيف كانت مشاعري آنذاك فإني لا أحتاج سوى إلى سماع تلك الأغنية بدلًا من كتابة أطنان من الحروف في مذكرة.

أنتِ أغنيتي يا ترف، أغنيتي التي أريد لها الخلود. تلك الأغنية التي تزداد جمالًا كلما صارت عتيقة أكثر والتي لن أكفّ يومًا عن سماعها.

أتذكرين عندما سألتك عن تخصصك الجامعي، أخبرتني أنك صحفية لم تكتب قط في الصحف، ولم تكتب في أي مكان آخر، قلت لك حينذاك: «ولماذا؟ ألا تحبين الكتابة؟» أجبتِ بخبث: «أحبك أنت، ألا يكفي ذلك؟».

لم تُرد الإجابة بصراحة، هي تحب الكتابة، لكن

عائلتها لا تجد أن ذلك مناسب لامرأة، المرأة لا يجب أن تكتب باسمها الصريح، وتختلط بعالم الصحافة والكتّاب المليء بالخطايا، علمتُ كذلك أن لديها رواية لم ترَ النور، وربما لن تراها، رواية مليئة بأحاديث الحب المحرّمة على النساء، لهذا كانت تقصّها على ابنة خالتها فقط.

في دنيا ثانية، ربما كنتِ ستصبحين روائية شهيرة، كأحلام مستغانمي تمامًا، أو صحفية مرموقة أو مغنّية ذات جمهور، كان صوتك جميلًا على فكرة عندما غنيتِ لي، وقتئذ أخبرتِني أنك تحضرين دروسًا في البيانو، كنت سأسألك: ولماذا هذا التعب؟ أنتِ تعلمين أن كل هذه المواهب لن يعرف بها أحد.

اغبرّت أسنان البيانو قبل أن يسمع نغمتها أحد.

والقلم لا يزال في علبته، لم تفتحها بعد.

لكن ذراعيها مفتوحتان لي، وقلبها أصبح مفتوحًا للدنيا. أصبحَتْ ترى الأشياء أجمل والألوان أكثر، أصبحت الصورة أكثر إشراقًا، والصباح أكثر سعادة، لم تعد ترى الأمور بسوداوية مثلما كانت تفعل.

لحظات من الجنة.

كانت لحظاتي معك تشبه الحلم، لذا خبأتها معي، خبأت ذكرياتك معي في زجاجة عطر أرشّها كلما سرقني الحنين، خبأتها في شال حرير، في أغنية فيروزية، في صورة تآكلت أطرافها من الأسى.

الآن لم أعد خائفًا، ارحلي كما شئتِ، فمستقرّك هنا. حتى لو افترقنا سيظلّ قلبي مبتسمًا كلما استرجعت ذكرياتك. لا أضمن لك أي شيء سوى أن يظل جزء منك فيّ إلى الأبد.

قرأت في مكانٍ ما مقولة لا تزال محفورة برأسي تقول: «مقابل لذة واحدة، هنالك ألف ألم!».

كانت هي لذتي الوحيدة.

~ **طارق**

# (9)

من أين يأتي كل هذا الحزن الكامن في الناي؟

من أين ينساب هذا النحيب الذي يتفجر كلما نفخ أحدهم الهواء بداخله، من أين يأتي وإلى أين يذهب؟

كيف يمكن للنحيب أن يستقر داخل قطعة جماد، يستقر زمنًا غير معلوم حتى يأتي من ينفخ فيه الروح، ثم يمضي إلى الملتفين حوله ليحرقهم بشذاه؟ كيف يمكن للجماد أن يبعث الحياة؟

كنتُ أستمع إلى مقطوعة موسيقية هادئة في غرفتي، ثم أوقفتها فجأة بعد أن دوّى طرق أخي على الباب، دخل وهو يقول:

- مباركٌ يا أختي، لقد حددنا موعد الزواج، نهاية هذا الشهر، يجب عليك التحضّر سريعًا فليس هناك وقت.

فاجأني قرارهم الذي اتخذوه بدون حتى أن

يستشيروني، التقطت أنفاسي قليلًا ثم حاولت المجادلة:

- ماذا؟ بهذه السرعة؟ لا أستطيع! اختباراتي تبدأ الأسبوع القادم!

- أية اختبارات؟ أقول لك زواج وتقولين اختبارات؟ أساسًا خطيبك اشترط ألا تعملي أو تدرسي، يريد أن تتفرغي لشؤون البيت.

- ولكن أنا لا..

- بس خلاص، لا تناقشي في هذا الموضوع، مصلحتك في الزواج.

ثم خرج، وتركني أحاول لملمة شتات تلك الجملة التي لم أقلها أمامه: «حياتي هي ملكي، لا ملكك»، تركتها دفينة داخل أعماقي، لم تخرج.

كان دفقٌ من السباب واللعنات يتطاير بداخلي، شتائم تحيا وتموت دون صوت، نقاشات مفتعلة وردود مفحمة تغلي وتنطفئ دون أن تلسع أحدًا، دموع تنسكب وتتبخر دون أن يراها أحد. حياةٌ أخرى تضطرم في جوفي، آلاف المشاعر التي لا تتحرك إلا هنا، وكأنها تحاول الانطلاق إلى الفضاء لكن يشدها

القيد، يشدها السجّان وألفُ سجّان، تحاول التملص في كل ثانية قبل أن تستسلم وتهدأ.

ثم يعود كل شيء إلى السكون، وكأن أحدهم قد أقفل الصنبور فتوقف الهدير إلا من قطرات شاردة تثقب الأذن أكثر مما كان يفعله الهدير، تلك هي مشاعري.

ثم بعد دقائق تتباطأ القطرات حتى يسكن كل شيء، ويعود ذلك الطنين المزعج، الخواء، لا بأس فأنا أستعمله كثيرًا، أرسل خيالاتي جميعها إلى هناك، تتكاثر تلك الخيالات وتبني مدينة فاضلة يعمها السلام والحرية.. الأمان والحرية.. الجمال والحرية.. الحرية. ثم بعد خمس دقائق أفتح عينيّ فتهوي المدينة وتختفي كأن لم تكن، ويموت سكّانها كأن لم يعيشوا.

لم تكن أحلامي جديرة بالعيش فماتت، ولم أكن جديرة بها فتركتُها تموت.

لم يكن حواري مع أخي يتعدّى ثلاث دقائق، لكنه سيؤثر في ما تبقى من حياتي، لم تكن إلا دقائق فكيف تفعل بي كل ذلك.

ثم بدأت أبكي.

بكيت كثيرًا حتى نمت على الأرض، ثم أفقت بعد ساعات وأنا على السرير وأنفي ينزف مجددًا، قمتُ لأغسل وجهي، نظرت إلى المرآة طويلًا، إلى وجهي، ولم أفهم، لماذا غزا كل هذا الحزن وجهي دون الآخرين؟ أردت أن أضرب الزجاج، هذا الوجه المليء بالخيبة، لكني خفضت نظري إلى الأرض لأجد إلى جانبي رسالة:

❀ ❀ ❀

## ـ الرسالة الخامسة عشرة ـ

كنا في مطلع يناير 1998 عندما فكرت لأول مرة في الحب، لم أكن أفهم منه إلّا أنه سبب كل الأغاني على وجه الأرض. لم أكن قد تجاوزت الثامنة عشرة، أتذكر امرأة أحببتها، رأيتها في أحد أحلامي لأول مرة، كانت تنظر إلي بحب ولم تقل لي أية كلمة، بعد استفاقتي من الحلم حفظت وجهها جيدًا، نظرتها البسيطة، صمتها، ملابسها البيضاء، هذا كل ما أعرفه عنها، حتى أنني قمت بعد ذلك بوصفها لصديق لي ليرسمها ثم قارنت وجهها بكل وجهٍ ألقاه، ولم أجدها حتى اليوم.

قلتِ لي وقتئذ:

- مجنووون!
- وهل في الحب عاقل؟
- وماذا عن حبيبتك السابقة؟
- ليست لدي حبيبة سابقة، هذه فقط.
- لكنك أخبرتني أنك أحببت من قبل.
- نعم، هذه هي حبيبتي السابقة، لقد كانت حقيقية كفاية بالنسبة إلي في ذلك الوقت. لكني راضٍ بتجربتي تلك، لقد كفتني شر الحب أعوامًا حتى جئتِ!
- أنا شرٌ إذن!؟
- لم أقل ذلك! أقصد لو أنني أحببت فيما مضى، فربما لم أكن لأحب ثانية، الأقدار ساقتنا الواحد إلى الآخر بأخف الأضرار.

كنت أختلق العذر تلو العذر لأبرر لنفسي ما حدث بيننا، كان حبك أشبه بدائرة مغلقة، كلما اقتربت من نهايتها ابتدأت من جديد.

لم أكن لأهرب قط.

أعلم أني سأحبك مذ كنت طفلًا، كل الدلائل تشير إلى ذلك، كل شيء، سارت حياتنا بخطة مثالية حتى تأتي لي وتعملي لدي، ثم لأحبك، ثم ماذا؟

ثم ماذا بعد؟

كانت حياتي تتجه نحو الفوضى، أهملت كل شيء من أجلك، حتى تلك الأشياء التي جعلتك تحبينني، مثل طموحاتي وتفاؤلي وإقبالي على الحياة. انقضى شهر فبراير، شهر الحب، ثم لم يكن شهر مارس إلا شهرًا من الفوضى اللذيذة، تلك التي تجعل المرء لا يرغب أبدًا في أن تعود حياته منظمة وهادئة، كنتِ عاصفةً قلبت كل شيء.

وكما كان مارس يدور حول فكرة الفوضى، كان أبريل يدور حول فكرة وحيدة.. الزواج.

لم أكن لأتزوجك قط، ليس بسبب العادات والتقاليد، ولا بسبب اختلاف العائلات، ولا لأي سبب آخر مكذوب قلته لك لأتملص من الحقيقة، تلك الحقيقة التي لا أجرؤ على قولها لك، كيف وأنتِ تقرعين أجراس قلبي كل يوم لتعلني حبًا لا منتهيًا، لم أكن لأنهي ذلك الجنون يومًا!

يالكِ من طفلة، أنتِ التي تدعين الله دائمًا أن

«يجمعنا أحباب أو يفرقنا أحباب»، لم أكن أريد أن أفكر، كيف نفترق أحبابًا؟ ولماذا أصلًا قد نفترق؟

كنتُ أحيانًا أغيب عنك أيامًا ثم أعود فجأة، لكني أعود لأغمرك بحبٍ يعوّضك عن فترات الغياب تلك، بالإضافة إلى أعمالي الكثيرة فإن أمراضي لا تنتهي، مناعتي الضعيفة تجعلني أصاب فورًا بالمرض، وقد يستفحل الأمر ليمنعني من الحراك تمامًا لأيام، لم يكن ذلك مفاجئًا لي، أتوقع ذلك في أي لحظة، لذا أقنعتك بأني إن انقطعت عن التواصل معك فذلك سيكون بسبب أعمالي ولا داعي لأن تقلقي، وصدّقتِ ذلك.

الأمور تتكالب علي، حبك بدأ يفقدني عقلي، صحتي تتدهور، وأخوك بدأت شكوكه تزيد حولك، ثم تطلبين مني الزواج! أي عقل تمتلكينه يا تَرف؟ أنا أحاول لملمة كل هذا الشتات. كانت أخطاؤنا تتزايد كل يوم، مثل كل حب، وكانت مشاكلنا تتزايد كذلك، مثل كل حب. كنتِ تغضبين مثلًا لو تأخرتُ عن موعدنا دقيقتين، وكنت لا أتحمل أن تتجاهلي رسالة مني، لذا كنا نتشاجر كثيرًا، لكننا نتعانق أكثر.

ما زلت أذكر تلك المشاجرة اللذيذة حين افتعلتُ

الغضب عندما قلتِ لي تلك الحكمة التي أعجبتك «الرجل الذي يحبك حقًا هو من سيجعلك ترتدين له الأبيض»، قلت لك حينئذ: «وهل هناك من سيحبك إن كنتِ تعشقين افتعال المشاكل؟». كنت أود إغاظتك فقط، أعلم أنك كنتِ تقصدينني بتلك الحكمة!

كانت الأخطاء البسيطة لا تغتفر.

لم تردّي وقتئذ، لكنك قلتِ لي بعدها:

- أتعلم؟ أكره كثيرًا أن أبدأ بتبرير شيء لم يكن في عقلي أصلًا. لم أكن أعني ما تبادر إلى ذهنك، لستُ بتلك الوقاحة حتى أهين من أحببته بكل جنون وغرسته في صدري وردة أرويها حتى لا تذبل.

- . . .

- كيف تجرّأ عقلك ياسيدي وألهمك ذلك المعنى القبيح، كيف تجرّأ ليضعك مع غيرك من الرجال! أنت! أنت تقارن نفسك برجال عاديين! أنت تعلم بأنني أعتبرك شيئًا لن يتكرر، ولولا ظروفك وظروفي المعتمة لجعلتني أرتدي لك الأبيض، أليس هذا ما أخبرتني به؟ أردتَ أن أتألم؟ حسنًا، لقد تألمت، تألمت كثيرًا.

لا أعلم لماذا قلتُ لك ما قلت، ربما هرموناتي الذكورية جعلتني أفكر أولًا في الانتقام. لم أنوِ إيلامك، ولا أستطيع تحمل فكرة أن أكون متسببًا بتعبك يومًا، ولكن لماذا يخطر في بالي أنك بعد وقت ما ستلفظينني إلى أقرب مقبرة نسيان في قلبك؟

قلتُ لك أخيرًا:

- كل شيء بدونك وهم، وكل شيء غيرك حلم، أنتِ حقيقتي الوحيدة.

كانت الشكوك قد بدأت تحوم حولنا، التساؤلات الكثيرة التي يُطلقها أهلك حول الأماكن التي ترتادينها والاتصالات التي تجرينها تنبئ عن شكٍّ مبرّر. لذا كانت لقاءاتي بك أخف، لكن حبك يزيد، وعذابي يزيد أكثر، وحبنا يكاد يلامس السماء، لم يعد هناك أصلًا أشياء أخرى في حياتي وحياتك إلا الحب، كل الأمور الأخرى بدت تتقزم وتتقزم حتى لم تعد شيئًا. توقفت كل عوامل الاهتمام الأخرى حتى أصبح قلبانا خاليين إلا منك ومني.

كان حبًا مفزعًا، كنا نخشى الافتراق أكثر من حبنا لبعضنا البعض. كل كلمة وكل حركة تدور حولنا نخشى أن توقع بنا، كنا مرهقين كثيرًا.

اخترنا أن نتراسل أحيانًا عوضًا عن اللقاء، هذه المدينة البائسة بدأت تلفظنا، كتبتِ لي:

«من أين يبدأ عادةً من أدمى قلبه الحب؟

لا أعرف لمَ جئت إليك الآن، وما الذي أريده حقًا منك؟ كل ما أعرفه أنني لم أعد أطيق أي ساعة تمر من دونك، أشعر برغبة كبيرة في احتضانك حتى يذوب ما أعيشه من ألم بين يديك.

عندما أحببتك، كنت على يقين بأنني كمن يبني قصورًا فوق السحاب، لا يمكنه أن يتنبأ متى ستعصف به الريح فتجعله نسيًا منسيًا. كنت أدرك بأنني لن أحظى بلحظة معك ولن يتسنى لي أن أنظر إلى عينيك بدون خوف كأي امرأة تصادفها في الطريق، وبأن شرف انتظاري لك بعد أن تعود منهكًا من عملك لأحتضنك وأمتص تعب الساعات هو حلم ينتهي مع الضوء.

كنت أعلم منذ الحلقة الأولى لحبك النهاية، لكن عقلي من فرط جنونه بك عاش وهمًا جميلًا، أرادك أن تكون له يا سيدي فلا يخشى لومة لائم حين يموت صريعًا بين يديك.

إنها الأقدار، من أنهت الحلم تمامًا.

أُدرك بأني سأصحو من حلمك الجميل، لم ترتبط ليلى بقيس، ولم يكتب لروميو أن يعيش من أجل جولييت، ومع ذلك خلّد التاريخ تلك اللحظات المليئة بالجنون.

سيدي، كتب لي القدر أن أعشقك حد الجنون، لذلك أنا أتنازل عن حقي بك أمامك وأمام من ينظر إلينا من السماء، اليوم أتنازل عن حقي حتى في الدعاء، يكفيني أن أحبك أكثر، لا أود معرفة أي شيء آخر، انتهى الموضوع تمامًا بالنسبة إلي، أريدك حبًا صافيًا طاهرًا، هل هذا حلمٌ صعب المنال؟».

أتعلمين يا حبيبتي، عندما أحببتك، كنت أرى النهاية بوضوح، لكن قلبي أعماني عنوة، لم أكن أريد لحلمنا الصغير أن ينتهي، كنت أعيش أغرب أيامي، كنت أصل إلى قمة الحزن والسعادة معًا، حين أرمّم بيوت الطين على حافة الشاطئ وأنا أعلم أن الموج سيسقطها سريعًا لكني رغم ذلك أستمر في رسم أدق تفاصيل ذلك البيت ثم أمضي. أعلم أني حلمت بشيء لا أستحقه، لكنه كان أعظم حلم حلُمته يومًا.

أتعلمين يا سيدتي، منذ أحببتك تغير كل شيء، لم يعد الناس هم الناس ولا الأرض هي الأرض،

أصبحت أراك في كل شارع وكل مطعم وكل امرأة، أرانا في كل حلقة من مسلسل حب، وفي أي رجل وامرأة يمسك كلاهما يد الآخر في سوق ما. يتمثل لي طيفك، في كل زاوية من زوايا جامعتي، وفي كل قطرة من قطرات قهوتي الصباحية، حتى أدق تفاصيلك أصبحت تشكل فارقًا لدي. تفاصيل مضحكة لن أذكرها، لأنها بسيطة جدًا لكنها تعني لي الكثير.

في الحقيقة، أحسد أي شخص يتحدث كل صباح عن يومه المشرق، وآماله الكبيرة. أتمنى ألا أفكر في شيء وأن أتفاءل وأعيش اليوم دون انتظار الغد، لكني لا أستطيع، أنا مرهق جدًا جدًا، لم يعد قلبي يستطيع النبض أكثر من ذلك.

كيف لم يخطر ببالي يومًا أنك السبب الوحيد لبقائي حيًا؟

كل شيء يختلف عندما تأتين، ويتساوى كل الناس أمامي حين يرنّ جوالي معلنًا مجيء رسالة منك، لكن مع ذلك يتفطر قلبي كمدًا وأنا أعلم أن نهايتنا ليست مثالية كما في الأفلام. أعلم أني جرحتك مرارًا بهذه الجملة لكن هذه هي الحقيقة الوحيدة التي أستطيع أن أعدك بها الآن، تلك الحقيقة التي تجعلني

أنام كل مساء آملًا أن أستيقظ فأجدك في جواري، وأنام ليالي أخرى آملًا ألا أستيقظ أبدًا، لكنني مع ذلك أستيقظ، أستيقظ كثيرًا، وتمضي الحياة.

يا مجنونة، أصبحت كلماتك مثل الحبوب المسكنة، أقرأها عند الألم.

كنت أشعر بأن الدنيا ضبابية أمامي، لم يعد يهمني شيءٌ سواها، أعترف أمام الله بأنها أكبر قصة حب عشتها، وأكثر من بكيت لأجلها، وأعظم من تمنيت أن ألتقيها، وآخر من سأسقط أمامها.

لو كنت أستطيع العودة بالزمن إلى الوراء فلن أختار سيناريو أفضل مما حدث بيننا، رغم كل الآلام والتعب، هي أجمل شيء حدث لي.

كتبت لها بأحرف أعياها اليأس: «حبيبتي، حتى أنا أريد حبًا صافيًا، بعيدًا عن أي شيء آخر، هذا كل ما أنا متيقن منه، أساسًا أنا لا أستطيع أن أتخيل حياتي بدونك لحظة، وإن لم يجمعنا الله هنا، فسألتقيك في حياة أخرى، حيث لا حزن ولا تعب ولا فراق، ثقي أن روحينا لن تفترقا أبدًا، أحبك».

~ **طارق**

أبعدتُ الرسالة ثم استلقيت على السرير وبصري شاخص نحو الأعلى، سرحت بي الأفكار في كل مكان، لم أنم ليلتئذ، ذهبت بثقل نحو الجامعة.

كان السائق يترنّم على وقع أغنية مصرية لا يعرف معناها، أشرتُ له بأن يقفل الراديو، كنتُ حزينة، بدأت أستوعب ما يجري، زواجي سيكون بعد شهر من رجلٍ لا أعرفه.

كيف باعوني هكذا، أنا التي يقولون عني كل يوم أنني جوهرة ثمينة ويرفضون أن يراني الرجال، سيحشرونني بعد شهر في غرفة صغيرة مع رجل لا أعرفه ليعرّيني ويتحسس كل شبرٍ في جسدي!

إنها معادلة خاسرة، لكني قبلتها مكرهة، النساء لا يملكن اختيارات كثيرة هنا.

وصلت إلى الجامعة، ولم أدخل لأدرس، كنت ذاهبة فقط لتأجيل هذا الفصل الدراسي، لن أستطيع إكماله بعد ما حدث، ليس وزواجي الموعود مقبل كالبركان.

في طريقي قابلت د. هدى وهي تسير نحو مكتبها، مشيت معها وأخبرتها بما حدث، صُدمَت

تمامًا بالخبر، كانت تنتظر مني شيئًا أكثر من أن أتزوج وأُسجن في البيت:

- لن أترك الجامعة، هذا الفصل فقط، حتى أعرف ماذا سيحدث في المستقبل.

- تنازلك عن هذا الفصل يعني تنازلك عن الجامعة، الأمر يتم بالتدريج دائمًا، في النهاية ستكونين وحدك في منزلٍ خاوٍ تقضين فيه أجمل أيام شبابك كسجينة.

- لا أعلم ماذا أفعل، الحزن يلفني من كل صوب.

لم تكن كلماتها تغيّر شيئًا، أنهكني الأمر، وبعض الأشياء مجرد التفكير فيها يحرق القلب، كنتُ محترقة بشدة.

- أنتِ تفوّتين كل الفرص من يديك، الفرص العظيمة لا تأتي غير مرة، لديك الآن الفرصة لترفضي وتقولي لا، لديك الفرصة لتصنعي مستقبلك أنتِ لا مستقبلهم!

- الكلام سهل يا دكتورة، أنا أضعف من ذلك.

حكت لي قصة قصيرة عن شاب خجول كان في أحد المطاعم القريبة من بيته، وبينما هو يتناول طعام

العشاء لمح فتاة جالسة وحدها، أعجبته وبدأ يطيل النظر إليها، ثمّ عندما انتهت وقامت لتذهب، خاف أن يفقدها فركب سيارته وتبعها حتى وصلت إلى بيتها، بعد ذلك أصبح يتردد إلى بيتها كثيرًا دون أن تعرف ثم يعود حزينًا إلى بيته غير قادر على مصارحتها، حتى قرّر في يوم محادثتها، تبعها حين خرجت من منزلها، دخلت أحد المقاهي وجلست أمام إحدى الطاولات، جهّز الفتى كل ما سيقوله واقترب ليتحدث، قامت الفتاة وهي تقول: «مرحبًا بك، لقد انتظرتك كثيرًا»، همّ أن يرد عليها قبل أن يأتي أحدهم من خلفه مرحبًا بالفتاة، كانت تنتظر ذاك الرجل.

حبس الفتى الخجول كلامه وانسحب سريعًا إلى طاولته، عرف من خلال حديثهما أنه خطيبها، لكنه لم يفقد الأمل وظل يتابعها كل يوم. ثم في أحد الأيام وهو يراقبها مع خطيبها وجدها تبادله النظر وتطيل التحديق إليه، ارتبك كثيرًا وشكّ أنها لاحظت وجوده، فجأة اتخذ قرارًا بمصارحتها، كتب لها كل ما يريد أن يقوله في ورقة، كتب أنه يحبها ومستعد لفعل أي شيء من أجلها ودوّن رقمه في أسفل الصفحة.

ذهب إلى بيتها لكنه لم يجد أحدًا، وجد عمّالًا

ينقلون بعض الأمتعة، سألهم أين أهل البيت؟ فأخبروه أنهم في طريقهم إلى محطة القطار القريبة للسفر إلى مدينة أخرى، انطلق بالسيارة كالمجنون حتى وصل إلى المحطة، وبعد البحث المضني وجد البنت بصحبة أبيها وأمها، اقترب منها واصطدم بها بحركة متعمدة أسقطت شنطتها، حمل شنطتها ليناولها إياها ووضع الورقة داخلها دون أن تدري، ثم رحل.

عندما قامت البنت من كرسيّها لتركب قطارها، نسيت الشنطة، والتقطها أحد اللصوص وهرب. غادرت المدينة وهي لم تعلم يومًا أن هناك قلبًا مجنونًا أحبها لأشهر، لم تعلم بوجوده قط. أتعلمين يا سلمى ما الأغرب من ذلك كله؟ أنها انفصلت عن خطيبها قبل أن ترحل.

- ما المغزى من هذا كله؟
- فكرّي في نفسك يا سلمى.

كانت الأيام الكئيبة تمرّ بطيئة جدًا، لم يفرحني فيها إلا تلك الرسالة التي وجدتها محشورة في الجيب الخلفي للجينز الذي كنت أرتديه، وكأن أحدًا قد وضعه هنا دون أن أحس.

## ـ الرسالة السادسة عشرة ـ

كيف حدث هذا؟

كيف أصبحت مدمنًا إياك أشد أنواع الإدمان؟ ولماذا صرت أراك في عيون العالم أجمع؟ ولماذا أصبحت أعيش فقط من أجل اللقاء؟

لماذا أصبحت لا أعرف من أنا، ولا أشعر بابتسامتي التي تهرب مني أمامهم عندما يمرني طيفك فأبتسم كالمجنون للفراغ!؟

كيف حدث أن أغار ممن حولك حتى لمجرد نطقهم باسمك!؟ كيف صرتُ لا أبالي بمن حولي، ولماذا أصبحتِ هاجسي والحاضر ومستقبلي الذي أبني عمري حتى أصل إليه رغم يقيني أنك ستظلين بعيدة جدًا؟

لماذا أيتها البعيدة أكون من دونك ميتًا ومعك أعود إلى الحياة؟ لماذا صرت أفتح عينيّ قبل أن تشبع من نومها حتى أراك!؟

لماذا؟ لماذا؟ لماذا؟ لماذا؟

لماذا يحدث معي كل هذا؟

لقد تعبت من أن أهزم أمام خطواتي، يجب أن يتغير كل شيء.

كان أمرًا جديدًا بالنسبة إلي أن أحزن إلى هذه الدرجة، أنا الشغوف بالفرح، أنا الذي أفتش عن السعادة في كل مكان، كنتِ تشدينني شدًا نحو حزنك، لم يكن ذلك جديدًا بالنسبة إليكِ، حزنكِ قديم، قديم جدًا قِدَم تلك النظرة المكسورة التي ترسمينها على وجهكِ منذ الصغر، الحزن والوحدة عادتان أصيلتان بالنسبة إليكِ، صداقاتكِ النادرة في الثانوية والجامعة شاهدة على ذلك، كنتِ تجهلين الحياة، تجهلين الحب، تجهلين أشياء كثيرة لا يجهلها من كان في مثل سنّكِ آنذاك.

كنت أعتقد أن الله يعاقبك بأحزان جديدة لتشبثك بذلك الحزن، قلتِ لي إن أباك يعاني مشاكل مالية مفزعة وهذا يؤثر في صحته المتردية أصلًا، وأن موقفه معقد جدًا، لم تشرحي لي أكثر من ذلك وطلبتِ الابتعاد عني أيامًا لأن الظروف سيئة، لم أمانع، كانت فرصة للتفكير في كل شيء.

مثلث حياتك الوحيد كان محزنًا، أختك

المتوفاة، أبوك المريض، عاشقك المتعب. حشرتِني رغم أنفي ضمن مثلثٍ حزين، كان أمرًا منهكًا.

وفي خضم ذلك الحزن الرهيب كانت تبزغ لحظات خالدة من السعادة، مثل تلك اللحظة التي قلتِ لي فيها: «أنت إنسان ما فيه منك اثنين»، أيتها الماكرة، تعلمين أن كل إنسان ليس منه اثنان، لم تكوني تجيدين المديح قط. كنت أستوقف بعض اللحظات وأعيدها في عقلي مرارًا حتى أحفظها جيدًا:

- أموت فيك.
- لا تموتين فيني، أبيك تعيشين فيني.
- حلوة أعجبتني، أوكي، أعيش فيك.
- وأنا بعد أعيش فيك!

زحام من الذكريات.

كان زحامي بك يبعدني عن وحدتي مع الناس، لم أعد مهتمًا بعائلتي ولا بدراستي، أغيب كثيرًا عن عملي، لا أتحدث عن السياسة والحروب والفن ولا تشدني كرة القدم ولا أي شيء آخر، كان أمرًا مقززًا، يجعل من يراني يشعر بالأسى لأجلي، كنت أشعر بالغثيان أحيانًا عندما أرى حياتي هذه، لكني سرعان ما

أحقن نفسي بجرعة من حبك فأنسى كل شيء. أخشى أن أموت بجرعة مفرطة منك.

ثم عرّفتِني إلى ابنة خالتك، سعاد. وعرّفتك أنا إلى أخي فيصل. كانت علاقة رباعية غريبة، لم يكن الهدف منها إلا أن نقضي على بذور الإثم التي تحاصرنا من كل الجهات.

سعاد هذه كانت شعلة من الطاقة والمرح والجمال، كان وجودها يضفي على أي مكان تكون فيه البهجة والحياة، حتى وجهها المرح كان يفي بكل متطلبات السعادة، وجه مكوّر قليلًا تغوص فيه عينان صغيرتان وأنف دقيق وفم ضاحك، لكن شيئًا من ذلك لم يكن ليغريني بها.

أما فيصل، أخي الذي يصغرني بعام، فكان من ذلك الصنف من الرجال الذي لا يكترث لشيء ولا يفكر كثيرًا، يعيش بعيدًا عن هموم النساء ومشاكلهن، كان يعرف كل شيء عن ترف، أخبرته بكل شيء، ووصلتهما معًا لكي أضفي نوعًا من الشرعية على علاقتنا، أحسستُ بأن هناك عائلة تتشكل، تكون فيها ترف زوجة لا خليلة.

لم يكن جنونًا، كنا محتاجين إلى أصدقاء يهتمون بأمر هذه العلاقة، من المفترض أن الكون بأسره يهتم بحبٍ كهذا، لو كنا فقط في نقطة أخرى مختلفة من العالم.

لم تكن تلك اللقاءات إلا اجتماعات لطيفة، تارة في مطعم، وأخرى عبر السكايب، وثالثة في مكان منعزل لا يطأه أحد، نظرات مسروقة بين سعاد وفيصل جعلتني وترف سعيدين أنهما معجبان كلاهما بالآخر، ربما يكون ذلك في مصلحتنا يومًا ما.

كان فيصل مَخرجًا لي في بداية الأمر، ألجأ إليه كثيرًا حين تظلم الدنيا أمامي، لكنه بدأ أخيرًا يمل شكواي التي لا تنتهي، بدأ ينصحني بترك ترف، كان أمرًا لا يصدق، وكأنه يقول لي أنصحك أن تموت!

لم يعد يحفل بحماستي المفرطة وأنا أحكي له عن جنوننا ورغباتنا، أصبح يضيق ذرعًا بي وبحياتي التي خلت من أي شيء إلّاها. ولم أعد أحفل بما يقول أيضًا، كنت منغمسًا في نشوة عارمة لا أعرف لها أولًا من آخر.

ثم أخطأتُ ثانية، حين وصلتها تلك الرسالة

اللعينة مني، كانت تحمل عتبًا بسيطًا «يا قوّ قلبك»، لكنها وقعت في اليد الخطأ، في يد تميم!

~ **طارق**

❀ ❀ ❀

يعتقد الجميع أنهم مسالمون حتى يمروا بتجربة حقيقية تظهر العكس.

كنتُ مستمتعة بالقراءة حتى وصلتُ إلى آخر كلمة، ذعرتُ وأنا أقرأ أن الرسالة وصلت إلى أخيها تميم، قارنت بينه وبين منذر، لم يكونا مختلفين كثيرًا، إنهم رجال، والرجل يحب السلطة المطلقة، وإذا ما غلّف هذه السلطة برداء الدين أو التقوى والأخلاق فإن ذلك سيكون خطيرًا جدًا.

الرجال كانوا على مدى السنين هم من يفتعل الحروب والعداوات بين الشعوب، هم من يقتتل، وهم أكثر من يموت ويحيا، لذا كانوا هم الجنس المسيطر دهورًا.

لكننا الآن لم نعد في زمن القوة المندثر، نعيش الآن في زمن مختلف تمامًا، زمن العلم، فالعالِم يبقى وإن كان ضعيفًا، والجاهل يفنى وإن كان قويًا.

ليس هناك أكثر تحضرًا من امرأة.

وأنا تلك المرأة التي ما زالت تعيش في عصر الجاهلية، شددت همتي لأهرب من الماضي، لأتخلص من ذنب حواء، لأثبت للعالم الفسيح أني هنا.

- مها، أود أن أكون شيئًا مؤثرًا حتى وإن كان تأثيرًا بسيطًا، لا أريد أن أكون تابعة لغيري!

- أنا أحب أن أكون تابعة لغيري، هذا أسهل. الكون أصلًا تافه، كل مجموعة من الناس تطارد أحلامًا لمجموعة أخرى، لمَ هذا كله؟

- ألستِ جزءًا من الكون؟

- لا!

ليتني بقيت على عقلي القديم، مثل مها، لكن حينما بدأَتْ أفكاري تتشكّل، بدأت الحياة تعرضني للبيع.

كان العد التنازلي لبيعي يقترب، أقل من ثلاثة أسابيع تبقّت، لم يكن هنالك حتى وقت للغضب، جاء كل شيء كلمح البصر، لم تمهلني الحياة لأحب، لأعيش مغامرة خطيرة كمغامرة طارق، أو أن أنفذ

بعض الأفكار المجنونة التي أتخيلها كفكرة الحب الصيفي، تلك الفكرة التي رسمتها ذات ليلة.

كم هو جميل أن أحب أحدًا ذات صيف، أن أكون مسافرة إلى لندن مثلًا، ثم ألتقي أحدهم هناك، أعيش معه شهرين من الجنون، ثم ينتهي الصيف، ويعود كلّ عاشق إلى مدينته، وينتهي كل شيء، لا نحزن أبدًا، بل نعيش بشوق أن نجتمع الصيف القادم، وهكذا حتى يصبح حبنا أبديًا.

لكن شيئًا من هذا لم يحدث.

ما حدث هو أنني وفي اليوم نفسه وجدت رسالة أخرى من طارق ملقاة تحت ملاءات سريري الذي كنت أرتّبه، وبدأت أعوم في قصته من جديد:

❀ ❀ ❀

## ـ الرسالة السابعة عشرة ـ

كنتُ متكئًا في صالة البيت الكبير الذي أعيش فيه مع أهلي، أجلس بجسدي فقط معهم، لكن روحي لم تكن لتهدأ قط، كيف وأنا لا أستطيع الوصول إلى ترف منذ أيام، كانت أيامًا عصيبة حين تركتني فجأة ولم تعد

ترد على رسائلي الإلكترونية. لم أكن أستطيع الاتصال بها، أحسستُ بأن هناك مشكلة ما، ولم تدم حيرتي طويلًا حتى طلبت مني اللقاء لأمر ضروري:

- ترف، ما بك؟
- لقد كُشِف أمرنا!
- ماذا تقولين؟ كيف؟
- تميم، قرأ رسالتك!
- ماذا حدث؟ أخبريني بالضبط؟
- لقد.. لقد عرف كل شيء.. قرأ رسالتك، حاولت التحايل عليه لكن..
- اسمعيني، أخبريه بأي شيء، لا تقولي الحقيقة، هل تسمعين؟
- فات الأوان يا طارق.. أخبرته بأمرك، وضربني، هل تصدق يا طارق، لأول مرة يضربني أخي، انتهت المسرحية ولم يعد الأمر سرًا، توسلت إليه ألا يخبر أبي فيكفيه ما به، ثم أقسمت له إني لن أحادثك بعد اليوم!
- ثم ماذا؟

- لا شيء، أرجوك طارق امسح رقمي ولا تتصل بي ثانية، حتى اللقاءات، لا يجب أن نلتقي حاليًا، فلندع الأمور تهدأ، سامحني على ما حدث، ليس لك ذنب.

قالت كلماتها الأخيرة ثم انسحبت سريعًا وتركتني متصنمًا دقائق، لم أفهم ما حدث، ولا ماذا سيحدث بعد اليوم، أصبحت الأمور على حافة الانهيار، وأصبح حبنا ملطخًا بهاجس العار والخطر.

كانت الأمور تنحرف على نحو سيىء، الرياض ليست مدينة للمحبين، ضاقت بنا شوارعها الفسيحة، لم يكن ممكنًا أن نلتقي في هذا الوقت، لم تكن كذبة أبريل، أسبوع مر من دون ترف. وكالغيث أهطل شوقًا إليها في كل يوم، وأنشج أنفاسًا تخصها، ثم أستلقي على أعتاب محبرة علها ترسلها بعيدًا عن ذاكرتي، لكن ذلك لا يحدث أبدًا.

شيء من الحزن لا يضر! كنت أعزي نفسي بذلك.

كنت أسير وحدي قبيل الفجر في أحد شوارع حي العليا كالمجنون، لا يوجد من يتمشى على

الأرصفة في هذا الوقت إلا مدمن مخدرات أو عاشق، كنت من النوع الثاني.

وكلما نسجت خيوط الفجر الأولى على بساط الليل آمالها، لمحت بارقًا يقول: أليس الصبح بقريب؟

لا أعلم لم علاقات البشر غريبة هكذا؟ لماذا علي أن أعاني ألف مرة فقط لأن قلبًا لعينًا بداخلي يرغب بشدة في امرأة تبعد عنه كل هذا البعد؟

لم يصلني منها سوى رسالة إلكترونية مقتضبة جدًا. لماذا أصبحت حدودي معها صفحة إلكترونية؟ أي حب هذا الذي لم يعد يحتمل تلامس جسدين؟

كنتُ على وشك اليأس، ثم مدّت يدها إليّ، رأيتها مرة أخرى، كانت أجمل من السابق ألف مرة أو هكذا خُيّل إلي، رأيتها بعد أن كانت الأيام السبعة الماضية أشبه بموت مؤقت، توقفت حياتي عن الدوران حتى جاءت لتحركها بلمسة من إصبعها.

لم يكن لقاءً بل شلالات من المشاعر تتدفق بيننا، لم يكن حبنا ليضعف بتاتًا، عاد عاصفًا أكثر بآلاف المرات، كانت ليلة جنونية في كل تفاصيلها، حتى في ختامها.

- لم يعد يكفيني قلبٌ واحدٌ لحبك.
- طارق، أحس أن حبك ازداد كثيرًا عن السابق. هذا يخيفني، أخشى أن تتركني بعد كل هذا.
- لا تخافي، أنتِ أيضًا تغرقينني بحبٍ جنوني فوق العادة!
- لا، حبّك بدأ يخنقني يا طارق، أخشى أنه مثلما أغدقتَ عليّ بحبك مرة واحدة، سيختفي كل ذلك مرة واحدة. أما أنا فحبي متّزن يزداد ببطء، لذا فهو مستمر إلى الأبد!
- أنتِ تتخيلين، لن يختفي حبي.
- المهم، أخبرني ماذا سنفعل الآن؟
- ماذا تقصدين؟
- لا أستطيع الاستمرار هكذا، أرجوك يا طارق دعنا نتزوج، ما الذي يمنع؟
- لا أود الحديث في هذا الموضوع الآن.
- دائمًا لا تود الحديث، دائمًا. أنت لا تحس بمعاناتي من أجلك!
- ترف، أرجوك لا تفتعلي مشكلة جديدة، أحيانًا

أحس أنك أقرب لي من نفسي، وأحيانًا أحس أنك أبعد عني من النجوم!

- هل يعقل أن حبنا بهذا الضعف؟ ألّا يقدر على جمعنا تحت سقف بيت؟ أخبرني فقط بشيء، هل هناك أمل؟

- أنا مؤمن بأن الأمل في الحياة موجود دائمًا، لولا الأمل لمتّ منذ سنوات.

- إذن سنتزوج؟

لم أستطع أن أعدها بشيء، لذا قلتُ:

- أنتِ جميلة.

يستطيع أي رجل أن يخدع أية امرأة عندما يقول لها أنتِ جميلة.

عدت إلى البيت، وكتبت في مذكراتي، كتبت أننا لن يتخلى أحدنا عن الآخر أبدًا. كانت المذكرات جزءًا من طريقتي لتفريغ شحنات الألم والكآبة، عدت قليلًا إلى أيام سبقت حبنا وقرأت: «ترف قالت لي أحبك، لا أدري ماذا أفعل، أتمنى أن تختفي من حياتي». ضحكت كثيرًا، ثم أكملت: «لا أعلم ما شعوري نحوها، شيء ما فيّ تغيّر نحوها». أكملت

القراءة والذكريات تهطل علي كالمطر، كيف وصلنا إلى ما وصلنا إليه بهذه السرعة؟ كيف تغلغلت في أسطري وكتاباتي بعد أن كانت لا شيء؟

لم تكن المصائب لتتوقف قط، مذ رأيتها. هذه الحقيقة التي لم أخبرها بها يومًا، هذه المرة كانت مصيبتي أكبر، لقد مات بسببك. نعم بسببك أنتِ!

~ **طارق**

## (10)

الحزن الذي يلفّني ليس جديدًا، مكتظّة أنا بالأحزان مذ ولدتُ، وحتى قبل أن أولد، فقد كانت ولادتي صعبة جدًا حتى أنني خرجت من بطن أمي قبل أن أكمل تسعة أشهر، لم أكمل حياتي داخل رَحم أمي، ولا أعتقد أني سأكملها داخل رَحم الحياة الكبيرة.

ليس جديدًا هذا الحزن، ورثت حزني من أسلافي، الحزن المتراكم بداخلي لا يمكن أن يكون نتيجة حياة واحدة بل حيوات غير معروفة العدد تكومت جيلًا فجيل حتى وصلتني على طبقٍ من تعب.

كانت جرعة الحزن مضاعفة لأني وُلدت في بيتٍ جرَفَته موجة التشدد التي ضربت البلاد في الثمانينيات والتسعينيات، ذلك المخلب الذي سدّ شريان أيامي، لفّعني بالسواد من رأسي حتى أخمص قدميّ، حجب عني الألوان وحجبني عنها.

«لا يليق لهذا القلب أن يحزن».

تذكرت هذه الجملة التي قالتها ترف لطارق وأنا أعلم أني لا أستحق كل هذا، وأعلم أنه ليس بإمكاني الفرار، لم يكن هذا منصفًا.

ما نفع الكلمات؟ ليست كلماتي إلا صدىً لملايين الكلمات التي قيلت من قبل.

لم أكن مميزة في كلماتي، ولا في حزني، لم أكن مختلفة في العيش ولا في الموت، ملايين النساء اللاتي عِشن ومُتن ودُفنَت معهن كل الآلام السحيقة دون جدوى، ما الذي سأغيره أنا؟

تذكرت ما قالته لي د. هدى يومًا:

- تستطيعين أن تكوني إنسانة ناجحة، ذلك يعتمد على مدى قدرتك على اتخاذ الخطوة الجريئة القادمة.

كنت أنتظر معجزة إلهية لتغيّرني، وزمن المعجزات قد انتهى، لم أكن لأنجح هكذا.

إذا دعا المرء من أجل أن يمنحه الله النجاح فإن الله لا يجعله ناجحًا، بل يمنحه الفرصة ليصبح كذلك.

كانت الفرصة أمامي، لكني مترددة، لن يتدخل الله أكثر من ذلك.

معجزتي الصغيرة هي تلك الرسائل التي تسلّيني، يخفق قلبي في كل مرة أقرأ فيها كلمات طارق، كانت تحثّ شيئًا بداخلي على الانطلاق، لا أعلم شيئًا عن شعورٍ مشابه لما أشعر به عند وصول رسالته بين يديّ، كلمات، كلمات، كل ما يحرّكني كلمات ليست موجهة إلي لكن شيئًا بها يعنيني.

كنت أعتبر نفسي محظوظة به.

كان غريبًا أن أكون سعيدة وحزينة في اللحظة نفسها، عندما أقرأ رسائله أحلّق من الفرح وأموت من الحزن، شعور متناقض لا يمكن مزجه، لكنه كان يمتزج بداخلي.

على نحو غريب بدأت رسائل طارق تتكاثر عندما بدأ العد التنازلي لزواجي. الأسبوع الماضي وصلتني عدة رسائل، واليوم رسالتان، وبدأت أحلّق:

## ـ الرسالة الثامنة عشرة ـ

كنتِ تجلبين الشؤم معك، أعلم أنه ليس ذنبك، لكن وجودك المريب في حياتي، ثم تدهور أموري بعد أن أحببتك، كيف لي ألا أفكر هكذا؟

مات أخي فيصل.

كانت أيامًا كئيبة، لحظات العزاء السوداء تلك، ثلاثة أيام من السواد، تلتقى فيها عشرات الأشخاص لتخبرهم أنك بخير، ثم تتحدث في مواضيع لا تحبها فقط لتخفي حزنك العميق جدًا. فلتذهب هذه المشاعر المصطنعة إلى الجحيم.

كنت أهرب من فوضى غريبة، الكل متشح بالسواد، أهرب وأنا أتلفّت خوفًا من هذه الأشباح التي تتراءى لي في عيونهم، أهرب من الموت لألقي برأسي في صدر الحياة، في صدرها، كطفل، ثم أذرف دموعًا حقيقية لا أخشى أن يسخر منها أحد.

- لا تحزن يا طارق، أنت من كنت تتحدث عن الموت ولا تخافه.

- أتعلمين، تبًا لكل ما قلته لك عن الموت، لقد مات أخي، هل أنتِ مجنونة لتطلبي مني ألا

أحزن! تبًا لكل شيء! لماذا يتعمد القدر إذلالي هكذا، لماذا لم أكن أنا من ركب تلك السيارة اللعينة قبل أن تتحطم، أكان لزامًا أن يموت شاب سعيد كفيصل وأبقى أنا المحمل بالكآبة والهموم، تبًا لكل شيء!

- أحس بألمك، عشت هذه الأيام من قبل، أعلم كيف يمكن في لحظة واحدة أن تُسرق فرحة عائلة بأكملها. الدنيا مخيفة يا طارق، فلنتشبث كلانا بالآخر، أخشى أن نسقط إن أفلتنا أيدينا.

- أنتِ ما تبقى من سعادتي، لن نفترق بعد ذلك!

كل ليلة قبل أن أنام أقلّم أظفار الحزن، ثم أستيقظ لأجدها قد نبتت أكثر حدة. لكنّي سأسحقك، سأسحقك أيها اليأس، سأرسل عليك وابلًا من بذور الفرح، حتى تعلم أي قلبٍ حاولت تحطيمه!

ما زلت أتذكر تلك الكلمات الفارسية التي غنّاها شخص لا يؤمن بالحياة بعد الموت بعنوان الرسالة الأخيرة، كانت كلمات عظيمة، لا تقال إلا في رجل كفيصل:

«الآن ينام، بدون قصص ولا تهاليل..

ينام بدون ألم ولا أحزان..

لن يرى كابوس الشتاء من جديد..

وفي سباته، لن يكون هناك ندم ولا حسرة..

الشمس لن تستطيع أن تحرق وجهه ثانية..

والرياح لن تستطيع أن تلفح وجهه مرة أخرى..

لن يصحو أبدًا خائفًا..»

وا أسفا، لم أكن على علم بموعد الرحيل، لم أدوّن شيئًا كهذا في تقويمي المليء بالأشياء، يأتى بغتة، يفاجئنا ببلاهة ثم يمضي.

كان مَرِحًا أكثر من اللازم، حتى عند الأسئلة التي تبدو جدية جدًا، أتذكرين عندما سألته لمَ لا تقع في الحب:

- بلا حب، بلا وجع قلب.
- الحياة أصلًا كلها أوجاع، أقله لم لا تجرب وجعًا يجعلنا نعيش أيامًا مختلفة؟
- جربت ومللت، أريد أن أعيش حياة طبيعية!
- وهل عندما تحب تصبح شخصًا غير طبيعي؟
- نعم!

أغاظني رده، كنت واقعًا في الحب لدرجة أني

لم أدرك أن كلامه كان صحيحًا، كان صحيحًا جدًا، لا يوجد شخص طبيعي يحب، الحب للمجانين.

لا شيء في الدنيا أبدًا يساوي أن يعود الإنسان في نهاية يومه وينام مرتاحًا دون أن يفكر في غدٍ مفزع.

- لماذا لا تأخذني إليك يا طارق؟
- أووه ألا تملين هذا الموضوع!
- لا. لقد وصلت إلى الحد الأخير من الصبر، لا أستطيع.
- الحقيقة الناقصة جميلة في الغالب، لا تحاولي إفسادها بمعرفة المزيد!
- بل ستخبرني!
- سأخبرك بكل شيء في الوقت المناسب.
- هذا هو الوقت المناسب، الآن ستخبرني، أنا أعرف كل شيء.
- ماذا تعرفين؟
- أنت مطلوب للشرطة في قضية كبيرة!
- هل تتكلمين بجدية؟
- إذن ماذا؟ حسنًا، عرفت، أنت مصاب بمرض خطير وستموت خلال أيام!
- ليس إلى هذه الدرجة! لن أموت قريبًا!

- إذن أنت مريض حقًا؟

- لا تتعبي نفسك بالتفكير، سوف أخبرك بكل شيء قريبًا.

لم تكن تلك المجنونة تعبأ بمحاولاتي لإلهائها، كانت مصرة على أن تعرف كل شيء، ولم أكن مستعدًا لإخبارها بشيء.

- أخبرني، هل هو مرض مخيف؟ كبد؟ قلب؟ ماذا؟ لماذا أنت ساكت؟

- أووووه كم أنت مزعجة!

- لا تخف أنا سأرضى بأي شيء، سنموت معًا أو نحيا معًا، أخبرني فقط، أي شيء سأقبله إلا أمر واحد.

- ما هو؟

- أن تكون أصلع! هذا ما لا أستطيع أن أحتمله!

ضحكت وصرخت نافيًا وأنا أزيح قبعة كنت أرتديها: «لست أصلع، هاه شوفي». ضحكنا كثيرًا، ضحكنا على حالنا، كنا نقتنص تلك الفرص الصغيرة لنتشبث بها قبل أن يقتلعنا الزمن اقتلاعًا. ولم أعد أعلم هل أنا أضحك من شدة الفرح أم الحزن؟

كانت الأيام السوداء تصبح رمادية ثم تتدرج في التلوّن حتى تعود ملوّنة تمامًا، صحيح أن هناك غمامة سوداء لا تزال ملوّحة، لكن الزمن كفيل بمحو كل شيء، حتى أصعب الأشياء التي لم أكن لأتوقع أن أفيق منها أبدًا.

الحياة مليئة بالكوارث ولكن لا يعني ذلك أنها ستقتلنا. كنتِ أنتِ أحد تلك الأمور التي تجعل المرء قادرًا على النهوض مرة أخرى ومواصلة الركض. كنتِ إكسير الحياة بالنسبة إلي.

كانت الاختبارات الجامعية والضغوطات العملية تجبرني على النسيان، نسيان أخي ونسيانك، وكأن وجودها في هذا الوقت المتعمد جاء كحقنة مسكنة مناسبة، فرصة للابتعاد عن كل شيء فترة من الوقت.

كان نسياني المتعمد لكِ مهمًا لي، حتى أعود وأصفعك بحبٍ أقوى ومشاعر متمددة، وليت الأمور تجري دائمًا كما نخطط لها.

~ **طارق**

لم أضيّع الوقت هذه المرة بالتفكير، فورًا فتحت الرسالة الثانية وأكملت القراءة:

## ـ الرسالة التاسعة عشرة ـ

لماذا يستيقظ الضرير إذا كان يستطيع الرؤية في أحلامه؟

قررتُ أن أستيقظ، ما عدت أستطيع البقاء هكذا أكثر، حياتي لم تعد حياة بل حبًا ومشاعر وخوفًا وحزنًا وقليلًا جدًا من الحياة.

أخبرتُها أنني أصبحت أفكر بواقعية، لكنها أجابت بأنها تريد أن تظل تحلم! لم تكن إجابة متوقعة! لكني كنت مصرًّا، وسأخبرها بكل شيء، لم يعد بالإمكان تأجيل ذلك.

- ترف، أنا..
- ماذا؟
- أنا مريض، مريض جدًا. أنا يا ترف مصاب بمرض، وهذا المرض قد يفقدني كل شيء!
- ماذا تقول؟ وما هو هذا المرض؟

كانت تشدني من قميصي بقوة دون أن تحس، أجلستها وطلبت منها أن تهدأ ثم أكملتُ:

- اسمعيني يا سيدتي، أنا مصاب بمرض ابيضاض الدم.
- بدأت أخاف بشدة يا طارق، وما هو هذا الابيضاض اللعين؟
- الحقيقة.. ممم.. كنت أحاول أن ألطّف لك الموضوع، ولكن ما دمتِ مصرّة فهو نوع من أمراض السرطان، سرطان الدم!
- ...
- لا شيء مضمونًا مع هذا المرض، قد أصحو يومًا لأجد نفسي طريح الفراش، قد يتفاقم كل شيء مرة واحدة، لا ضمانات أبدًا.
- ولكن.. أنت هنا أمامي.. لا تعاني شيئًا.. كيف؟
- هذا صحيح، حتى أنا لم أعلم عن مرضي إلا قبل سنة رغم مكوثه بي سنوات طوالًا، كل شيء ممكن أن يتبدل بلحظة، وكل شيء ممكن أن يختفي فترة، الأمر معقد.

- طارق، أنت تمزح، صحيح؟ تريد إخافتي قليلًا؟

ابتعدت عنها، لم يعد هناك ما أستطيع قوله، ليت الأمر مزحة كما تتوقع، ابتعدت عنها كثيرًا، كنتُ على حدود المدينة التعيسة، أردت أن أبتعد قدر الإمكان، ركضت على رصيف مهجور وأنا أتذكر كل شيء، لماذا يحدث هذا لي؟

إن كان القدر يخطط لإبعادي عنها فسيحتاج إلى خطة محكمة جدًا لفعل ذلك! لن أرحل بسهولة، ليس بعد أن نصبت أعمدتي أمام جدران قلبها الورقي، لن أسمح بتمزيقه مرة أخرى.

أنتِ لي، أنا لكِ، كنت أهذي وحديثنا يدور مرارًا في عقلي، وجهها الحزين متسمّر أمام أنفي وأنا أبحث عن مفاتيح سيارتي التي أوقفتها على جانب الطريق.

قدتُ سيارتي ببطء حين بدأت أحس بدوارٍ عنيف يزحزح عقلي من مكانه، وجدتُ مستشفىً في طريقي، توقفتُ سريعًا ثم ألقيت ببدني في صالة استقبال المرضى!

كنت مستلقيًا على عربة معدنية تجرها الممرضات من ممر إلى آخر، أركض سريعًا في جنبات المستشفى

وأنا لا أفهم لمَ أنا هنا! ساعات عدة من الفحوصات قبل أن يهدأ كل شيء وأنا مستلقٍ على سريرٍ أبيض في مستشفىً لا أذكر اسمه، طبيب تلا على مسامعي أطنانًا من الجمل المتراصّة لم أسمع منها شيئًا.

لم تكد تمر دقائق وأنا أهم بالرحيل حتى أتاني رجل كبير السن يسلّم علي، سألني عن أحوالي ثم قال لي:

- لديك مناسبة سعيدة بعد تسعة أيام، صحيح؟
- ماذا؟
- عيد ميلاد أبيك، أليس كذلك؟
- صحيح، وما أدراك؟
- أخبرني، أنت تدرس؟
- نعم، لماذا؟
- أنهِ دراستك بسرعة، فسوف تتزوج بعدها امرأة تشبهك!

ذهب سريعًا بعد أن أنهى جملته، كنت سأتبعه لولا أن منعني الإرهاق من ذلك، لم أفهم ماذا كان يقصد، أهو منجّم أم ماذا؟

حاولت ألا أشغل بالي كثيرًا بما حدث، لم يكن يومًا عصيبًا فحسب، كان مروّعًا، كان اختبارًا حقيقيًا لحبنا، لكنني نجحت في اختبار الحياة ذلك، علمتُ ذلك حين قالت لي في اليوم التالي:

- طارق، لقد ازددت تمسكًا بك، متى ستتقدم لخطبتي؟
- هل تعين ما تقولين؟
- نعم، هذا ليس بالأمر المهم لدي، أنا أحبك، ألم تفهم بعد؟
- لكن، أنا لا أعلم، ربما.. أموت.
- نموت معًا!
- وعلى فكرة، ربما أصبح أصلعَ بعد فترة!

ضحكنا طويلًا رغمًا عن كل شيء.

كيف يكون النهار جليًا إن لم يسبقه ليل دامس؟ الآن فهمت، لقد نجحت في اختبار الحياة حقًا، سأتزوج ترف، باذخة هذه الفكرة، لم أستطع أن أخبىء فرحتي أمامها.

اتفقنا أخيرًا.

سوف أتقدم لأهلها بعد أن أنهي فصلي الدراسي في منتصف يونيو المقبل، بقي أقل من شهرين، مدة كافية لكي أرتب كل شيء.

- أبي لن يمانع، لكن أخي متسلط قليلًا.
- تقصدين متسلط جدًا!
- المهم أنه لن يقبل فكرة الزواج بعد علاقة.
- لا تخافي، سندّعي بأن أحدنا لا يعرف عن الآخر أي شيء.

خرجت لأحتفل، كنت أقطع الطريق الدائري الشمالي الذي يقسم الرياض نصفين بسرعة جنونية وأنا أغني مع محمد عبده بصوتٍ عال:

«أرفض المسافة، والسور، والباب، والحارس.. أنا الجالس ورا ظهر النهار.. ينفض غبار ذكرى.. أرفض يكون الانتظار بكرا».

أرفض أن أكون مجرد قصة تُرمى في رف مكتبة.

~ **طارق**

# (11)

لا أدري لمَ خطر لي فجأة أني أشبه طارق، رغم أن كل شيء فينا يختلف عن الآخر. أحسست أن ما يكتبه يشبهني بطريقة غير مفهومة، حتى أني شعرت فجأة بمرضي بسرطان الدم، لذا فتحت الإنترنت ووجدت أن التعب والحمّى ونزف الأنف قد تكون أعراضًا لهذا المرض!

لم أحزن، سعدتُ كثيرًا بأن تشابهنا قد يكون حقيقيًا، ولم أذهب إلى المستشفى لأقطع شكي بيقيني، تركت الأمور تجري كما تريد، حتى أنني رقصت اليوم على وقع أغانٍ لا يمكن الرقص على إيقاعها.

تذكرت حديث طارق عن الأغاني العراقية وأنا أسمع أغنية لأنوار عبدالوهاب، تقول تلك السيدة الحزينة إنها تريد أن تطلق روحها في مهب الريح، آملةً أن تسقط في موطن حبيبها عندما تسكن الريح!

**عمده أرد أتيّه الروح وبعاصف الريح**
**بلكي على نزل هواي من يصفن تطيح**

كان حزنها وحزني وحزن طارق متشابهًا، يجمعنا الحزن والأمل، وتفرّقنا القصص.

آه كم أرغب في أن أطلق روحي بعيدًا قبل أن يحلّ موعد زواجي، أن أختفي فجأة دون أن يعلم أحد كيف تم ذلك لأمارس حياتي في مكان آخر لا يشبه هذا المكان.

شعوري نحو طارق يكبر كل يوم. لا أدري أأنا أحبه أم أحب حَكاياه؟

كنتُ مريضة حقًا، أعلم ذلك لكني أهرب كعادتي من كل شيء، علمت ذلك في اليوم التالي حين اختلّ توازني وسقطت أرضًا ولم أستطع النهوض دقائق.

قمت وأنا أردد أبياتًا لا أدري متى قرأتها:

**غـــدًا لا مـــوعـــدٌ جَـــذِلُ**
**ولا فَـــرَحٌ ولا أمـــلُ**
**غـــدًا لا شـــيء يـــجـــمـــعـــنـــا**
**ألا يـــا ويـــح مـــا فـــعـــلـــوا**

تمسكت بطرف السرير وأنا أهم بالجلوس ثم لمحت رسالة ملقاة والتقطتها بثقل:

❀ ❀ ❀

## ـ الرسالة العشرون ـ

العاشر من يونيو 2011

لم يكن مَرَضي مؤلمًا، كنت متعايشًا معه حتى أتت.

ولو سألني أحدهم قبل ستة أشهر أن أتوقع ما سيحدث لي في هذا العالم فسيكون جوابي مختلفًا جدًا، كنت لأقول له عن أفكاري ومشاريعي وطموحاتي، عن أيام بيضاء سعيدة خالية من الآلام، كنت سأتحدث عني وعني فقط، لم يكن يدور في أكثر أحلامي غرابةً أن شيطانةً ما ستنتقل للعيش في قلبي وتزحزح كل شيءٍ سواها.

لم أكن أرجو في أكثر صلواتي خشوعًا أن أحصل على حبٍ عاصفٍ كهذا.

لكني حصلتُ، وسواء أيبدو هذا الأمر سيئًا أم جيدًا فليس هذا بالسؤال الملحّ. اليوم، فقط أريد أن أعلم، كيف حدث هذا؟

كيف تحوّلت تلك المرأة الغريبة الخجولة التي كانت تحادثني قبل سنوات بلهجة جديّة جدًا حين أطلب منها عملًا ما، إلى امرأة تتضور شوقًا وألمًا

حين أغيب عنها ساعة، إلى امرأة تناقش معي أكثر الأمور حميميةً دون أن يرفّ لها جفن؟

كيف أصبحَتْ هي نفسها تلك التي نسيت عيد ميلادها ذات مرة بصفاقة فاشتاطت غضبًا وغيرة، ولم تصدّق كذبة أنني كنت أختبر ردة فعلها فقط!

كان عيد ميلادها، الثامن من يناير، لم يكترث أحد لذلك، ولم تصلها أي معايدات. كانت تنتظر هدية مني لكني لم أفعل:

- اليوم عيد ميلادي، هل نسيتِ؟
- حقًا؟ اعذريني!
- شكرًا.
- هل غضبتِ؟
- صدمتني!
- حتى أنتِ كنت ستنسين يوم ميلادي، هل تذكرين متى؟
- الرابع من يوليو.
- حسنًا لا تغضبي، كنت أختبرك فقط!
- ...

كيف أصبحَتْ تلك المرأة العاقلة هي نفسها المرأة المجنونة التي ناولتني ذات مرة ورقة محشوة بأطنان من الحروف عنونتها بـ «مائة سبب وسبب تجعلني أحب طارق»!

هل سبق لأحدهم أن شعر فجأة بأن كل أكسجين العالم لم يعد يكفيه ليسحب شهيقًا عندما بدأ يفكر في حجم عشقه لشخصٍ ما؟ هذا ما كان يحدث لي تمامًا.

كان العد التنازلي لإبقاء حبنا في جنح الظلام قد اقترب من نهايته، حتى أنني بدأت أسمع زغاريد الفرح تجلجل في سمائي، لم يكونا سوى يومين، يومان وأطرق بابها، لكنهما لم يكونا يومين فحسب، كانا مائة واثنين وسبعين ألفًا وثمانمائة ثانية من الانتظار، كل ثانية منها بدأت تستطيل حتى غدت قرونًا، وحدث ما كنت أخشاه!

لم تكن فكرة ذكية، أن نتقابل قبل موعد الخطبة، كان تميم لنا بالمرصاد حيث رآها تستقل سيارتي ثم تَبِعنا حتى نزلنا في إحدى الأسواق المتناثرة في الرياض، أسرع إلينا والشرر يتطاير من عينيه، أمسك بذراع أخته وهو يسب ويشتم ويجرها إلى سيارته، كنت مذهولًا لهول الموقف، تصنّمت أمامه، ثم

انسحبت سريعًا ولم يجدني حين عاد راكضًا ليتعارك معي، من يدري، ربما كان ليقتلني. لكنني انسحبت، فضّلت أن أجبن.

عادت ترف مع أخيها وهو يتوعدها بمصير أسود، أدخلها غرفتها ثم ضربها حتى كادت تفقد حياتها، لم يكن هناك أحد في البيت لينقذها من بطشه، لكنها نجت، مع منعها من الخروج والاتصال بأي أحد.

كان وقتًا عصيبًا، ذلك الأسبوع المشؤوم، لم أكن على علم بما حدث، كنت أطوّق بيتها كالمجنون علّها تخرج لأعرف إن كانت بخير، لكنها لم تفعل.

إنها غلطتي، أن أعبث بأمر لا أقدر على تحمل تكاليفه.

أخيرًا وبعد أسبوع، وصلني اتصال من سعاد، ابنة خالتها، تخبرني فيه أنها بخير، وتطلب مني عدم الاتصال أو الاقتراب من بيتها حتى تهدأ الأمور.

انتهيت من المكالمة وقذفت بالجوال بعيدًا، ضربت بيدي على السرير والأفكار تتصايح بداخلي، أي حبٍ هذا الذي يكون مهدّدًا كل يوم!

أنا لست لصًا أو مروج مخدرات أو معارضًا

سياسيًا لأعيش كل هذا التخويف والتهديد، أنا محبّ، وكل ذنبي في هذه البقعة الملعونة أنني أحببت.

كنت أعلم أن أخاك لن يقتلك، سيلقنك درسًا فقط لكي تتذكري من هو المسيطر في هذا المجتمع، يجب أن لا تنسي لثانية أنك امرأة، أنتِ أقل منه وتحت إمرته، تذكري ذلك.

ومع هذا فإن هذا التميم خطير جدًا، مثله مثل أي رجل شرقي، قد يتخطى كل الخطوط حين تُمس إحدى إناثه، تمامًا كما تفعل الأسود في مملكة الحيوان، ولا تنسي يا ترف، يملك البشر استعدادًا لفعل أشياء لم يتوقعوا فعلها ذات يوم متى ما واتتهم الفرصة المناسبة.

لكني لم أقم بفعل الشيء المناسب حين واتتني الفرصة، كنتُ أختلق الأعذار حتى أؤجل موضوع الخطبة، فعلتُ ذلك مرارًا، وحين نفدت الأعذار، قبض أخوك علينا متلبسين بالحب.

في يومٍ ما سيضاف إلى لقبي الذي صنعته بك كلمة «سابق».

**غـــــدًا لا مـــــوعـــــدٌ جَـــــذِلُ**
**ولا فَـــــــــــرَحٌ ولا أمـــــــــــلُ**

**غـــدًا لا شـــيء يـــجـــمـــعـــنـــا**
**ألا يـــا تـــرفُ، مـــا فـــعـــلـــوا؟**

زاد مرضي بسببك، دخلت المستشفى عدة مرات، وفي كل مرة كان الأطباء يخبرونني أن سرطان الدم متعب لكنه ليس قاتلًا، قد أنجو، فحالتي أخفّ من الآخرين كثيرًا، ولم أكن مكترثًا لكلامهم، لست خائفًا من الموت أصلًا، أنا خائف من المسبب الأول للموت، الحب.

فترة سيئة وتمر، هذا ما كنت أحدث نفسي به وأنا على مشارف الانتهاء من أول فصل دراسي في الجامعة، وأول فصل عاطفي في قصة حبي المميتة، إنها قصة متعبة يا سلمى، ألم تملّي منها حتى الآن؟ أحسدك على صبرك في تلقي هذه الرسائل من شخص لا تعرفينه، لا تحزني، فستكون الفصول القادمة أكثر إثارة، أعدك!

~ **طارق**

❀ ❀ ❀

حبست شهقة عارمة نخرت صدري وأنا أقرأ الأسطر الأخيرة، أحسست بأنه يهددني بطريقة ما، لكن.. لا يمكن أن يشكّل طارق مصدر تهديد لي!

لم يهمني حديثه لي في آخر رسالته بقدر ما أفزعني كتابته للشعر الذي كنت أهذي به قبل فتح رسالته! لم أجد أي تفسير لما حدث.

كان الصباح أكثر إشراقًا على غير العادة، الغيوم تكدّست على صفحة السماء، والعصافير تغنّي ليوم جديد لكن الغريق لا يبالي بعذوبة الماء.

كل ما يعنيني هو تلك الأيام العشرة المتبقية قبل أن أُزفّ إلى عريسي، كيف سأتصرف الآن؟ وهل يمكن أن أنجو؟

فجأة تذكرت المرض، قفزت من سريري راكضة إلى أمي لأخبرها بالخبر المفجع، قلت لها بنبرة باردة:

- لا أستطيع الزواج يا أمي، أنا مصابة بالسرطان!
- طيب شريتي فستان العرس ولا بعد؟
- أمي، أنا لا أمزح، أنا فعلًا مريضة، يجب عليكم إخبار العريس فورًا!

لم تلتفت أمي إلى محاولاتي المستمرة، لم تهزّها أيضًا الدمعات والنحيب، أخيرًا قالت لي على سبيل إنهاء الموضوع أنها ستذهب معي إلى المستشفى

للتحقق من أن كل شيء على ما يرام، قبّلتها وهربت إلى غرفتي سعيدة وأنا أحس باقتراب الفرج.

عند اقترابي من الغرفة وجدت طرف ورقة يبرز من تحت الباب، وكأن أحدًا حاول وضع رسالة ثم هرب، أسرعت لأخذها قبل أن ينتبه أحد، وقبل أن أغلق الباب، التفتُّ لأتحقق أن أحدًا لم يلحظ ما حدث، لم يكن هناك أحد، لكني سمعت صوت إغلاق باب غرفة أخي، سرت قشعريرة خوف في أسفل ظهري وأغلقت باب غرفتي سريعًا.

انزويت في سريري وبدأت أقرأ:



## ـ الرسالة الحادية والعشرون ـ

وضّبت أمتعتي استعدادًا للسفر، لم أكن أستطيع البقاء أكثر في هذه المدينة، كان الوطن وكأنه لا يحفل بي، لا يمكن لي إلّا أن أغادر. مرّت عدة أسابيع منذ تلك الحادثة، كانت لقاءاتنا خفيفة جدًا لكنها مليئة بالمشاعر الحارقة كجو الرياض الحارق الآن، درجة الحرارة تلامس الخمسين أحيانًا في مثل هذا الوقت من السنة.

لم تكن الفترة الماضية إلا نسيانًا لا أحب أن أتحدث عنه، لذا قررت أن أقطع تذكرة ذهاب فقط إلى باريس، لن أعود إلا عندما أتحسن، أسبوع، شهر، شهران، من يدري، أريد فقط أن أهرب إلى المجهول.

وهربتُ إلى مطار الرياض الواسع، المتآكلة أطرافه من أنين الذاهبين، هنا فقط أقسم إني أكاد أسمع حشرجات الجدران والمقاعد والأرصفة، تلك الأشياء الشاهدة على الرحيل، يبصق فيها المسافر كل حزنه ثم يمضي، يدوس ذكرياته المتراكمة ليتهيأ لاستقبال ذكريات قد تكون أجمل، لكني لم أقدر على ذلك، انسلّت ذكرياتي عنوة في حقيبتي، أراها وقد انحشرت في زجاجة العطر تلك التي أهدتها إلي ذات حب.

- أنا مسافر يا حبيبتي.

كان خبرًا صادمًا بعثته لها في رسالة قصيرة رجوت الله ألا تقع في يد ذلك الخبيث، ولم تقع، لكن قلبها وقع وهي تراني أغادر بعيدًا عنها، بعيدًا عن الوطن.

بين الأرض والسماء وأنا أفكر، وطني هو أينما كنت حرًا، لا أين ولدت أو ترعرعت.

الوطن، بقايا أمنية معلّقة على أعتاب السماء ترجمها الشياطين قبل أن تلتقطها الملائكة. ونحن المرجومين لم يسعفنا حبنا وحنيننا إلى وطننا، ولم تُعِدنا زفرة من زفراته، ليس الآن.

لم تكد سبع ساعات تمر إلا وأنا أجول في مدينة النور، أحمل معي مظلة ابتعتها من مطار شارل دوغول تقيني شر المطر النازح على جوانب الطريق الرئيسي، لم أكن أحمل حتى حجزًا لفندق، مظلة، حقيبة، محفظة مليئة بالنقود فقط، ويد تلوّح لسائق الأجرة القادم.

نصف ساعة فقط حتى وضعت قدميّ على رصيف جسر الكونكورد الذي يشطر نهر السين شطرين، ويقف أمامي بكبرياء قصر بوربون، ذلك القصر الذي بنته دوقة بوربون قبل أن تلتهمه الثورة الفرنسية ويتحول إلى مجلس حكومي. هنا حيث كانت تدور حروب طاحنة لتحرير فرنسا من الملكية، من يصدق أن كل شيء سينتهي يومًا ما ويتحول المكان إلى ساحة سلام خضراء.

كل شيء يدعوني لأن أصدّق بأن حربي التي أخوضها معها ستنتهي يومًا وسأرفع رايات النصر أمام القدر، وأغنّي كما غنّى حسين نعمة:

«يا روحي تعالي نذوب، ونكتب للفرح مكتوب..

يمكن هالفرح يفرح، ويمكن هالحزن يسرح، ويمكن هالزمان يتوب..

ليش نضيع، وفرحنا هناك ينطرنا؟ تعال نبيع ضياع سنين ضيعنا..

ورا ليل الوهم دنيانا فرحانة، وعشّ صغير فرحة مغيّره ألوانه..

ليش نضيع، وهوانا خضراء أغصانه؟»

اخترت فندقًا قريبًا، رميت بأمتعتي وجسمي على سريرٍ مريح، لم يكن يتحرك فيّ إلا يد تبحث عن رسالة جوال، لم أجد شيئًا، علمتُ أنها غاضبة، لكني لم أهتم كثيرًا، نمت قبل أن أفكر.

لم تكد تمر بضع ساعات حتى استفقت على رنين الهاتف، كانت ترف تتصل بنهم كدت أنساه، انمسح كل حزنٍ سابق وضاع كل عتاب:

- طارق، اشتقت إليك، لا تتركني..
- لا تخافي ترف، خلف خطوط هذا الكون.. نحن معًا.

كنا نتعانق عبر الهاتف، ثم ما نلبث أن نتعارك، لم نكن إلا مجنونين جمعهما أثير لا يبالي بمدى المسافة الهائلة التي تقطع بينهما، ألف مدينة، وآلاف الكيلومترات وملايين الأنفاس.

- يجمعنا القمر يا طارق، هو موعدنا إن طال الغياب.

- ولأنك هناك تنتظرينني على كف القدر، سوف أحيا. سوف نجتمع ثانية، وسأضم رأسك إلى صدري، رغمًا عن الجميع.

- لا تعلقني بأوهامك من جديد، أرجوك.

- ليست أوهامًا!

- أنت في فرنسا، وأنا هنا أواجه كل هذه الفوضى!

- بمجرد أن أعود سينتهي كل هذا، أعدك.

لم يكن جديدًا أن تبدأ مكالمتنا بقبلة وتنتهي بصفعة، ما هو جديد أنني تشجعت أخيرًا وقررت أن أواجه الجميع لأجلها، ليست إلا أيامًا معدودة وأعود مندفعًا نحوها، مثل كرة مدفع، مثل كاميكازي ينقضّ على عدوه، سأنقضّ على كل من يقف بيننا.

يبدأ التحدي لدي عندما يقول أحدهم: لا تستطيع فعل ذلك!

إنه تحدٍ، ولن يسعني سوى أن أقبله، لن أفقدك مرة أخرى، ماذا سيحدث لو أني خسرتُ العالم كله وربحتكِ أنتِ؟

الأيام هنا في باريس تمر بعيدة عن الأحزان والآلام، شوق عارم فقط، يجعلني أطوف شوارع المدينة القديمة وأنا أستمع لأغانٍ تلو أغانٍ، ثم أجلس على كرسي مقهى رخيص.

قلت بفرنسية مكسرة:

- جرسون، كوفي وذ ميلك، سيلفو بليه.

رد الجرسون بالعربية:

- تقصد كوفي أوليه، نحن نسميها كوفي أوليه هنا.

- أنت عربي؟

- فلسطيني، ولا تقل كلمة «جرسون» لأنها ليست كلمة مهذبة.

- آسف، إنها المرة الأولى لي في باريس، سعيد بلقائك.

- وأنا أيضًا، يبدو أنك خليجي، باريس مكتظة بكم هذه الأيام.

- آه نعم، عليكم تحملنا كل صيف.

أحضر لي القهوة وأصررت أن يشربها معي رغم رفضه التام، لكن قلة الزبائن في هذا الوقت من الليل جعلته يوافق.

- أتعلم يا..

- ثائر.

- أتعلم يا ثائر، باريس جعلتني أعيد حساباتي وأفكر كثيرًا في كل شيء.

- بالطبع هذه قبلة السياح الأولى.

- لست سائحًا هنا، في كل شبر من باريس أعامل بامتيازات المواطن. أقصد أنه ليس هناك فرق بين أحد، الكل متساوون هنا.

- هذا صحيح.

- لكن لماذا نشعر وكأننا سائحون في بلداننا؟

- ممم.. كنا دومًا سائحين، لكننا لا ندرك ذلك أبدًا.

- ماذا تقصد؟

- لا عليك، أنا فلسطيني، هذا يعني أن وطني يعيش فيّ أينما رحت.

كانت ساعتان من النقاش الجميل، لم أفهم كثيرًا مما يقول، يبدو أنه ناقم على البقع العربية كلها، لكنني انتهيت بمعرفة جديدة ستفيدني أثناء مكوثي هنا.

كنتُ أحادثها كل يوم، أحكي لها عمّا أراه، أغيظها بحكايات بنات الشانزليزيه، أبعث لها بلوحة رسمها لي أحد المحتالين أمام برج إيفل، أقص لها قصص صديقي ثائر وشتائمه الكثيرة.

ثم يحدث أن أراها على لوحة السماء، فأوصي النجوم أن تنير دربًا ترتاده.

كانت الأيام التالية فرصة لأخذ قيلولة من تعب المشاعر والمشاكل، كما أنني زرت العديد من المستشفيات الكبيرة لجمع بعض الآراء الطبية عن حالتي المَرَضية.

لم يتبقّ سوى أيام، قررت أن أعود، مكاني مع ترف، لا هنا إلى جانب ثائر:

- هل تعجبك الحياة هنا يا ثائر؟

- لا أملك بديلًا، وطني ليس متاحًا.

- لا، أقصد العمل في المقهى.
- آه، بالطبع، أتعلم، القهوة هي الحياة.
- وكيف ذلك؟
- الحياة قهوة مرة تحتاج إلى بضع شذرات من الحب كي نستطيع التلذذ بها.
- لكن بعض الناس يفضلونها مرة!
- أغبياء! «الحياة حلوة بس نفهمها» ولا شو؟
- أحيانًا تكون قاسية بطريقة صعبة الفهم.
- صحيح.
- لكن من العجيب أنه من بين مليارات البشر يكفيك شخص واحد، شخص واحد فقط ليبقيك سعيدًا طوال العمر.
- أنت تحب، أليس كذلك؟
- ماذا؟ وكيف عرفت؟
- يا أخي مبين عليك، تلميحاتك الرومانسية كثيرة.

كان يضحك بطريقة خبيثة وكأنه عرف سرًا دفينًا، لكنني أعلم من قبل أن حبي لا يمكن له إلا أن يظهر أمام كل من ألتقيه، «الصبّ تفضحه عيونه» أليس هذا صحيحًا؟

كنت أتعلم منه كل يوم، حتى عندما أراني شعار مقهاه الملوّن بالأخضر والأحمر والأزرق ثم قال:

- كم لونًا ترى هنا؟
- ثلاثة ألوان!
- خطأ، هنا ترى ألوان الحياة كلها، هذه الثلاثة ألوان كافية لخلق ملايين الألوان التي تتلألأ من حولنا، ألم تفهم بعد؟
- إلى ماذا ترمي؟
- أنت غبي جدًا، لا يلزمك أن تنال اللون الوردي أو الأصفر لكي تشكّل لوحتك، تستطيع فعل كل شيء بامتلاكك هذه الألوان الثلاثة.

كانت حياتي قد بدأت من جديد بالتلوّن، حتى أنها تتلألأ، لكن شيئًا ما كان يشعرني أنها فرحة ناقصة، لذا عجّلت بالرحيل قبل أن يحدث شيء مثل كل مرة، لم أنس أن أودع صديقي الباريسي وأتبادل وإياه أرقام الهواتف.

سأعود أخيرًا إليها، إلى قهوتي اللذيذة التي لم أتذوقها منذ عشرين يومًا، إلى ترف.

وصلت إلى الرياض فجرًا، شلالات هائلة من الحنين كانت تنتابني لهذه المدينة القاسية، لا أدري لمَ

كنت أذوب من فرط اشتياقي للعودة إلى مدينتي الصحراوية حتى أنني كدت أعانق رجال الأمن في المطار بعد إنهاء إجراءات الدخول، في الحقيقة لم يكن شوقي إلا إلى ساكنة المدينة، ترف، أخيرًا سأستطيع أن ألمس يدها بعد أسابيع الغياب الطويلة.

لم أتصل بها، انتظرت اتصالها، كنت أرى الطرقات بنظرة متفائلة مختلفة عن السابق، طلبت من سائق الأجرة التوقف عند أحد محلات الساندوتشات الخفيفة النادر وجودها في هذا الوقت الباكر من الصباح، لم أكد أنتهي من الطلب حتى وجدت رقمها ينير جوالي:

- الحمدلله على السلامة، وحشتني، سأتصل بك قريبًا، لا تتصل.

عدت إلى المنزل على أمل أن تتصل قريبًا لكنها لم تفعل، أحبطني هذا الاستقبال الفاتر قليلًا لكني تقبلت الأمر ثم نمت كثيرًا حتى انتصف العصر.

صحوت لإنهاء بعض الأمور العالقة ولم تتصل.

انتهى اليوم ولم تتصل.

~ **طارق**

# (12)

«الحياة مثل لعبة روليت، ونحن نراهن بكل شيء..

وبالنسبة إليك، فقد لمستَ الفوز مرةً لا أكثر..

ومثلما صاحبك الحظ، فقد أدار ظهره لك بعد ذلك..

لقد فشلت يا عزيزي، لا تراهن مرة أخرى..

أنا سعيدةٌ لأنك تعاني..»

كانت تلك الكلمات تسرح بي بعيدًا وأنا في السيارة متجهة إلى المستشفى، أذناي تلتصقان بسماعات الجوال، وبصوت حزين تطلق المغنية الكوستاريكية تشابيلا بارغاس تلك الكلمات معبرة عن غضبها الدفين ضد أحدهم، وهي التي اعترفت قبل أن تموت بأنها لم تمسّ رجلًا مطلقًا خلال عمرها المديد الذي جاوز التسعين، وقالت: «هكذا أنا أطهر بكثير».

توقفت السيارة أمام مدخل المستشفى وأنا

متحمسة لإجراء الفحوصات، وأحس بأني الوحيدة على هذه الأرض التي تدعو لأن يصيبها هذا المرض.

كانت لحظات حاسمة عندما اقتربَتْ منا الدكتورة ووضعت بعض الأوراق على طاولتها ثم جلست بالقرب منّا وهي تقول:

- أنتِ سليمة تمامًا يا سلمى، ما الذي دعاك للشك بأنك مصابة بالسرطان؟
- ماذا؟ هناك أعراض كثيرة أصابتني أخيرًا أكدت لي ذلك!
- هناك بعض الاختبارات الإضافية التي سنجريها لنتحقق بشكل كامل، ولكني أستطيع أن أقول بثقة إنك لا تعانين شيئًا.

خرجت من المستشفى على صوت أمي الغاضب:

- ارتحتِ الآن!!

عدتُ إلى البيت لأكمل استعدادي لزواجي الذي لم يبقَ عليه إلا أيام، سأموت قريبًا، أشعر بذلك حتمًا، وعند اقترابي من الموت سوف أصنع مثل الفِيَلة التي تذهب إلى مقبرة العظام عند دنوّ أجلها، أذهب

إلى بيت زوجي وأدفن نفسي مثل آلاف النساء اللاتي رضين بالموت طوعًا.

غضبٌ يتفجر بداخلي، كرهٌ واشمئزاز ولعنات على الآخرين، غضبي المعتاد الذي يصبُّ حممه على البشر وينسى المتسبب الحقيقي بألمي، ذاتي، تلك الذات الكسيرة الضعيفة.

لكن كل شيء من الممكن أن يتغير بلحظة، الحزن قد ينقلب سعادة بحجم الكون، والعكس كذلك، هذا ما تيقنت منه بعد أن وصلتني رسالتا طارق الجديدتان:

❀ ❀ ❀

## ـ الرسالة الثانية والعشرون ـ

كانت الشمس غاضبة ذلك اليوم!

لم أكن لأنسى ذلك قط، الخامس والعشرون من يوليو، كنت ممتلئًا بالطاقة والحيوية ومستعدًا لاستقبالك لتعوضيني عن يوم أمس لكنكِ لم تأتي.

كان اتصالًا هاتفيًا فقط، كنتِ تبكين:

ـ طارق، انتهى كل شيء.

- عمّاذا تتحدثين؟

- انتهى كل شيء بيننا، لم أكن أستطيع أن أخبرك بذلك أثناء سفرك، فضّلت أن أنتظر عودتك، أخي تميم لن يسمح بزواجنا.

- ماذا حدث؟ أخبريني؟

- قبل أيام جاء إليّ وأخبرني بأن صديقه يود خطبتي، لم أستطع أن أرفض!

- ماذا تقولين؟ هل تعنين أنك وافقت؟ ولماذا؟

- لم أستطع، أخبرته عنك وقلت إنك ستخطبني قريبًا لكنه ضربني وأقسم إني لن أتزوجك مادام حيًا، وأجبرني على الموافقة وإلا سيخبر أبي.

- وهل أبوك سيرفضني أيضًا؟

- نعم، سيعلم أننا على علاقة، وهو مريض ولا أستطيع أن أتعبه معي أكثر، أرجوك طارق، ابتعد.

- ابتعد؟ هذا ما استطعتِ فعله؟ هذا هو قدري لديك؟

- ليس ذنبي، أنت تعلم كيف تتم الأمور هنا.

كنتُ مذهولًا من الصدمة، لم أستطع الجدال أكثر، ولا أستطيع أن أفرض نفسي أكثر، ألقيت بالجوال ووضعت يديّ على رأسي وأنا أفكر، لا أستطيع فعل الكثير، اتصلت بها ثانية وطلبت منها رقم تميم، أخبرتها أنني سأخطبها وسأقنعه بذلك، لكنها لم توافق قط، أُسقط في يدي.

ـ ابتعد يا طارق، سأبقى أحبك ما حييت.

حلم! كنتُ في حلم واستيقظت، الآن أدركت ذلك! لكن لماذا لا يمكن للمرء أن يكمل حلمًا عاشه يومًا؟

غدًا نفترق.. ستكونين على صدر رجلٍ آخر.

غدًا لا شيء يربطنا، ولا ذكريات تجمعنا، لا ابتسامة ولا دمعة فرح ولا عتاب ولا حتى مشاجرة لذيذة تنتهي بكلمة أحبك. لا شيء من كل هذا، لن يكون بيننا سوى خيط رقيق يصل بين ذكرياتنا، أخشى أن تقطعه الأيام.

غدًا تقتلين ذكراي مثلما قتلتِني اليوم.

كنت أعيش أيامًا كارثية، لا أصدق أننا سنفترق بهذه السرعة. ليس بعد كل هذا الحب. خمسة أشهر

وأربعة عشر يومًا وأربع ساعات مدوّية منذ أحببتك، لم تكن أيامًا فقط، كانت عمرًا بأكمله.

- هل تتوقعين أن تموت المشاعر يا تَرف؟
- لا تموت، ربما تنام فقط.
- ألا تعتقدين أننا سنضحك في المستقبل على مشاعرنا؟
- لكنها مشاعر ناضجة، كيف لنا أن نفعل؟

كنت أحس أن الأشياء تتحرك ببطء من حولي، وكأن دوران الأرض أصبح أقل سرعة، وكأني ألتقط كل حرف تقوله وأسجله في ذاكرتي آملًا أن يدوم إلى الأبد.

- أتعرف يا طارق، التعب الذي عشناه معًا كان مفيدًا، سيُبقي حبنا بداخلنا كوشم، ربما سننسى سريعًا لو كان حبنا سعيدًا، لكنه كان حبًا عاصفًا جدًا. ربما لأن كلًا منا كان يبحث عن الآخر طوال هذه المدة.

لم أسمع شيئًا مما قالته بعد ذلك.

أشعر بوحدة قاتلة من بعدك، تخيّلي أن أشعر بالوحدة منذ الآن! انتهت المسرحية ومات أبطالها، لم يعد قلبانا يضمهما جدار الأمل.

قلبي كان يحدثني بأننا سنتخطى المستحيل وأن أحلامنا ستمزق حدود الزمان والمكان، لكن هيهات أن يكون اللقاء، فقد ماتت الأحلام والكلمات، ماتت الرسائل والصور.

أين حب أقسم أن يستمر؟ إنه لم يصمد عدة أشهر.. أهكذا هو الحب دائمًا؟

~ **طارق**

❀ ❀ ❀

أهكذا هو الحب؟

يفترقان هما، ونجتمع نحن؟

أحسستُ أن الحياة تغشّنا، ترمي لنا طُعمًا حتى ننزلق وراءها ثم تصيدنا بكماشة الظلم والحزن، مثل لعبة قمار، أو سوق أسهم، لا يمكن أن يربح فيه الشخص النظيف أبدًا.

مثل بيادق على رقعة شطرنج، تتلاعب بنا، تختار تحركاتنا وتوحي لنا أننا من نلعب، يا لنا من بلهاء.

حزينة أنا يا طارق، حزينة عليك وعليّ، نحن

نليق كثيرًا أحدنا بالآخر، هل أنا أحبك؟ لا يمكن ذلك، فلمَ لا أغار من حبيبتك؟

أكملتُ القراءة:



## ـ الرسالة الثالثة والعشرون ـ

إليكِ.. يا سيدة أحلامي.. أكتب رسائلي.

عبث.. كل ما يجول بخاطر الحياة وما تخطط له. أن تقذفنا في لجّة الحب ثم تتركنا لنختار أقدارنا بعد أن رسمته بخبثها السادي، عبث هي محاولاتنا للنجاة من بحرها بورقة قش. عبث أن تحاكمنا على ما أوقعتنا فيه.

لكننا أحببنا، أحببنا لدرجة أن نقف على صفحة الماء عابثين بقوانين الحياة وغوغائيتها، ثم نركض باتجاه اليابسة هاربين إلى وهم، قبل أن تبتلعنا مياهها وتعيدنا إلى نقطة البدء.. اليأس.

لقد كان حبنا أعظم من أن يتحمله القدر، وكانت سعادتي بك تغيظه، فقتَلَها.

لم يعد يعنيني الكون بعد أن التقيتك، أصبحت مثل مليونير لديه كنوز الدنيا في بيته، مليونير يشاهد قطعة نقدية على الأرض، هل سيلتقطها؟

أنتِ كنزي يا ترف، ولن أفرط فيك هكذا!

أنتِ؟ ما أنتِ سوى موت سريع التحضير، بضع قطرات من قلبكِ كافية لصنع مجزرة في جسدي النحيل. أسدلي بعض خصلات حبكِ على كتف أشواقي فقط وسترين مني عجبًا.

تعالي واسكبي آلام حضورك في جوفي فقد أرهقني ألم غيابك. لقد مللتُ خوفك وخجلك من حبنا، اصرخي ولو كذبًا وقولي إننا سنبقى معًا، أخبريهم أنهم لن يسرقوك مني وإن فعلوا، فأنا هنا في عقلك وقلبك وأحلامك، وتفاصيلي لن يسرقوها أبدًا من ثيابك، أنا هنا فيك أسكن ولو عشتِ مع غيري، سأظل أتلبس كل من تحبين وأظهر في كل بقعة ترتادينها، حتى تحين اللحظة المناسبة ثم أقبض عليكِ من جديد.

أرواحنا لم تفترق.. وكذلك أحلامنا.

فاسدة هي تلك اللحظات التي كنتِ فيها يا سيدتي تنسجين أحلامك الوردية على صدرٍ مثخنٍ

بالجراح، وتغرزين أنيابك في قلبٍ لم يملّ الحياة بعد.

جنونٌ أن تظني حبك حتميةً لن تخطئ وأبديةً لا تفنى! حسنًا لقد انقلب السحر على الساحر فها أنتِ تموتين كل يوم جرّاء عبثكِ الطفولي ورغبتكِ في تملّكي، لقد كانَ ثمني باهظًا يا شقيّة!

استيقظي يا طفلة! فلن أعود إليك كلما أرسلتِ دموعكِ، ولن أربّت كتفكِ كلما احتجتِ إليّ. أنا بعيدٌ الآن، بعيد جدًا جدًا، تفصلني عنك مئات الأسوار وملايين اللحظات، ستفتقدينني أكثر من أي شيء آخر، ستفتقدينني كلما تألمتِ ولم تجدي رجلًا مثلي.

لن تكون الأيام القادمة بالنسبة إليكِ إلا لعنةً موشومةً في جبين آمالك، سمٌ مدسوس في ملعقة كل فرحٍ تبتلعينه، سحرٌ محشور يوشك أن يخفي غمازتيك اللتين لا تظهران إلا عندما تضحكين.

من حقي أن تشاركيني في حزني مثلما اقتسمتِ معي أفراحي، ذلك الحزن الذي تفجّر في وجهي حتى غدا مشوّهًا أمام كل من رآني، لم أكن أستطيع أن أخفي تضاريس الجزع المحفورة في وجهي وذلك الشحوب الذي اعتراني وأرداني طريح الفراش. لم

أكن مستعدًا لاستقبال رمضان الذي داهمني وحيدًا بعد أن تعاهدنا أن نصومه معًا:

- سوف نختم القرآن معًا يا طارق.
- سأحاول من أجلك.
- لن تحاول، بل ستختمه معي، سأجبرك على ذلك!

أليس محيّرًا كيف أن الزمن في حالة ركض مستمرة إلى الأمام، ألّا نستطيع إيقافه والتقاط أنفاسنا ثانية، كل ثانية تمرّ، تكون قد انقضت إلى الأبد، لا يمكن للطبيعة أن تعود إلى الخلف، لم نستطع أن نفعل شيئًا أمام هذا الدوران المستمر للأيام، لكننا تحايلنا قليلًا على القدر واكتفينا بتسجيل بعض اللحظات لنشاهدها مرة بعد أخرى. ونجح الأمر.

كنت أحمل صورتها في يدي، تلك الصورة التي التقطناها معًا ذات يوم، تظهر سعيدة وهي تحيط كتفي بيدها، وأنا أعقد حاجبيّ لأظهر في الصورة بشكل سخيف، قمت بطبع الصورة وحشرتها في محفظتي لأراها دائمًا، اليوم أخرجتها للمرة الأولى بعد أشهر من الاختباء، كانت تظهر مبتسمة، وكأننا مازلنا معًا، وكأن لا شيء من مخاوفنا قد تحقق، كانت تلك لحظة

خالدة متجمدة من الزمن لن تختفي، لحظة وحيدة من آلاف اللحظات التي مضت دون أن تحظى بالخلود كهذه، ليس باستطاعة أحد منعي من النظر إلى هذه اللحظة الآن، أو بعد ثلاث دقائق أو خمسة أيام، أن أتمعن في مغزى هذه الابتسامة، أن أشاهدها بملء عينيّ، هذا أمر أستحق أن أسعد بشأنه كثيرًا.

ماذا كانت الحياة ستخسر لو أنها لم تفرّقنا؟

هل كان سينشرخ نظام الكون العظيم لو أن رجلًا بسيطًا أكمل حياته البسيطة مع امرأته البسيطة دون مقاطعة؟

لم تكن أسئلتي المتهالكة لتفيد بشيء، فقد حدث ما حدث وافترقنا كأن لم نلتقِ، وتباعد عن خصرها ساعداي، وارتفعت عن وجنتي خصلات شعرها، وتنافرت اتجاهاتنا.

لم أكن أستطيع أن أتصل بها بعد ذلك، حاولت الاتصال بسعاد لكنها لم ترد، وكأنها قد تواطأت مع قريبتها حتى أجنّ.

كانت أيامًا بطيئة جدًا.

ثم حدث أن هاتفتني بعد ذلك بأسبوع، كان

الوقت ليلًا، في أوائل شهر رمضان، ذلك الصوت المتهدج الذي اخترق سمعي:

- طارق.

- أهذه أنتِ يا ترف؟ لا أصدق!

- حبيبي.. اشتقت إليك!

- مازلتُ حبيبك؟

- ولن تزال!

«ولن تزال!» كلمتان أعادتاني إلى الحياة، مثل قطبين مكهربين يحتكان بصدر مريض لا يدق قلبه. صوتك ذكّرني أني مازلت حيًا!

- ألم تقولي لي إن نسبة فراقنا تسعون بالمائة؟

- نعم قلت ذلك.

- إذن فما زال الأمل موجودًا، سأرضى أن أنتظرك بما تبقّى من النسبة!

كنا نمدّ كلماتنا علّها تتعانق بعد أن عزّ علينا العناق، نمسك زمام اللحظات قبل أن تنفرط من أمامنا، لكن لا شيء من هذا كلّه كان ليؤخر مصيرنا المحتوم.

- سأتزوج في العيد.

هكذا، بهذه البساطة ألقت جملتها عليّ كالصاعقة، مثل رصاصة تنقضّ على مجرم هارب من قدره، يهرب قاطعًا الشوارع متجهًا نحو غابة فسيحة يدس جسمه بين أغصانها، يرى الأشجار المختلطة بأشعة متلونة من ضوء الشمس مثل حلم، يمد قدمه ليخطو قبل أن تباغته قطعة معدنية تخترق أحشاءه بسرعة هائلة لتذكّره بألّا خلاص، ثم تتركه يموت ببطء.

تذكرت ما قاله غازي القصيبي لسيدة الأقمار حين رحَلَت:

**هو الفراقُ! فماذا تأمرين إذن؟**
**أنوح؟ أصمت؟ أجري عنك؟ أتّئدُ؟**
**أقول «شكرًا»؟ أكانت ليلةً هبةً؟**
**يا للكريمة! إذ تسخو وتقتصدُ**
**هل التقينا؟ أم الأوهام تعبث بي؟**
**أين التقينا؟ متى؟ ألسبتُ؟ ألأحدُ؟**
**وهل مشينا معًا؟ في أيّ أمسيةٍ؟**
**في أي ثانيةٍ أودى بها الأبدُ؟**
**وهل همستِ «حبيبي»؟ أم سمعتُ صدىً**
**من عالم الجنِّ لم يهمس به أحدُ؟**

**أظـن مـا كـان مـن تـألـيـف راويـةٍ**
**تـحكي وتـنسـى، فبـاقي الفصل مُفتَقدُ**

ألـم تقولي لي: سأحارب الدنيا من أجلك؟ لـم تحاربي حتى ذُبابة.

**~ طارق**

❀ ❀ ❀

لكنني سأحارب، سأحارب اليوم وسأحارب لما تبقّى في حياتي، سأحارب حتى ألقى ذاتي من جديد، حتى أكون من جديد، تلك الفتاة التي لا يمكن للأيام ثنيها، ولا يمكن للآلام حنيها.

إنني أعيش في مكان غير ملائم للعيش، هذا ما استنتجته وأنا على مشارف الزواج الذي سيقام غدًا، حتى عائلتي التي أعيش معها لم تعد لها القدسية نفسها في قلبي، وسواء كان هذا صوابًا أو لا، فهو ما حدث. كنا كالحيوانات التي تحب أبناءها فقط وهي صغيرة، ثم تهملها عندما تكبر.

لذا قررت أن أنتقم.

قررت ببساطة أنني لن أتزوج، ذهبت ببرود إلى الصالة التي اجتمعت فيها العائلة وقلت الكلمة التي لم

أجرؤ على قولها يومًا: «لا».

وقفت في منتصف الصالة ثم صرخت بأعلى صوتي بكلمة «لا». التفت الجميع نحوي متسائلين عمّا أعنيه فقلت بهدوء:

- لن أتزوج غدًا أبدًا.

عدت أدراجي إلى غرفتي وأقفلتها قبل أن يفيقوا من وقع الجملة الأخيرة، سمعت بعدها خطوات متسارعة ثم طرقًا شديدًا على الباب يقف خلفه معصم منذر وهو يكاد يحفر الخشب:

- سلمى، افتحي الباب، هل جننتِ!
- لن أفتح، اذهب إلى الجحيم!
- افتحي وإلا كسرتُ الباب!
- اذهب وإلا اتصلت بالشرطة!

هدأ صوته وهو يقول:

- حسنًا دعينا نتحدث، لن أضربك، أعدك.

لم أردّ عليه، انتظر دقيقتين قبل أن يهجم كثور هائج على الباب، هذه المرة بقدمه، واستمر دقيقتين حتى أمسكه أبي ومنذر يردّد:

- مصيرك تفتحين الباب وأوريك شغلك يا عاهرة!

بدأ الضجيج يتطاير مثل دخان، لم أفعل شيئًا

أكثر من وضع سماعات الصوت، ثم صوت يصدح في أذني وأنا أرقص.

كانت أجمل ليلة في حياتي!

لم أعد خائفة، لم يزعجني ذلك النبض في شفتيّ عندما تهمّان بالارتجاف، ولم يراودني ذلك الألم الذي يمزّق بطني عندما يصرخ أحدهم فيّ.

انقلبت حياتي في لحظة، مثل طارق تمامًا، تذكّرته في خضم أفراحي فحزنت قليلًا وخففت من حدة مهرجان الرقص الذي أعيشه. فكّرت أن أكتب له بعض النصائح ليتمكن من استرجاع عشيقته لكنني تذكرت أنه هو من يرشدني وليس العكس.

ثم قلت لنفسي إن ابتعاد ترف ليس أمرًا سيئًا، فهي من تنافسني على قلبه، أعلم أن طارق يعني لي الكثير.

فتحت جوالي وأسرعت إلى بريدي الإلكتروني لأكتب له شيئًا، لكني وجدته سبقني وكتب لي رسالة، فتحتها وقرأت:

## ـ الرسالة الرابعة والعشرون ـ

لا أدري لـمَ أكتب لكِ الآن؟ لكنني وجدت نفسي لا إراديًا متجهًا نحوك رغم المسافة الشاسعة التي باتت بيننا، يكفي أن تعلمي أيّ وجعٍ خلّفه فيّ غيابك. لم أفقد امرأة فحسب، بل فقدتُ وطنًا كنت أعيش فيه، وحياة كنت أعيشها. تساقطت أحلامي كأوراق الخريف، لقاء واحد فقط بيننا كان كفيلًا بكل ذلك.

موجع هو حبك. موجع هو انتظاري لك.

أن تجديني على حافة الهاوية ثم تأتي لتقبضي يدي وتعيديني إلى الحياة دقائق قبل أن تفلتيها مرة أخرى.

أن أكون معلقًا في السماء فلا الأرض تؤويني ولا السماء تقبلني.

مروّع هو فقدك كل ليلة، ومميت هو فقدك الأخير.

أتعلمين يا سيدتي، في ذلك التاريخ المشؤوم عشية وصولي إلى الرياض، كنت أرتب الكلام وما سأقوله لك، كنتِ ستستقبلينني بقبلة، وجملة «نوّرت الرياض»، لكني لم أعلم أن أكفاني كانت مطوية تنتظر عودتي.

ألم فراقك كان مدوّيًا ودون مقدمات، دون جملٍ من نوع «خيرًا إن شاء الله»، أو «لا تَخَف». كل شيء تغير الآن، لم أعد أسمع ضحكات الأهل من حولي، ولا صرخات الأطفال وهم يتقافزون دون اكتراث.

كل ما أسمعه هو صوت الفراغ، لا شيء، طنينٌ يعبث بأذنيّ فقط. أتخيلك وأنت متّشحةٌ بالسواد تبكينني دون صوت، صورة رمادية بطيئة تضعين فيها يديك فوق رأسك ثم تضربين بهما على فخذيك.

اليوم لم أحلم بسواك، كنت أراك من بعيد تحومين في أحلامي، لم أتبين ملامحك جيدًا، كانت ضبابية، ولا أدري هل كنتِ تبتسمين أم لا. صحوت الساعة الثانية صباحًا، لم يعد هنالك من يوقظني، أو من أنظّم نومي لأجله، أصبحت أنام كثيرًا كثيرًا، ربما خمس عشرة ساعة في اليوم، اليقظة أصبحت موحشة.

مازلتِ كما عرفتُكِ أول مرة ومازال سحركِ يطغى على أركان المكان الذي سافرتِ عنه بعيدًا، لقد خلف رحيلك دمارًا كارثيًا.

أتذكرين ما قاله فيصل لنا بخفة دم معهودة: كلنا من تراب، أنت من تراب يا طارق، وأنتِ كذلك

يا ترف، إن حبًا ترابيًا كهذا لا يمكن له أن ينجو من هبة رياح!

- أرجوكِ، إذا أردتِ أن نتحدث فأنا سأنتظر دائمًا.

كتبتِ لي: «صعبٌ اللقاء، والأصعب الفراق الذي سيأتي. دع اللقاء لقاء القلوب».

لكننا لم نحتمل الفراق، لذا قررنا أن نلتقي قبل زواجها بيوم، ورأيتها هناك، أقسم إنها لم تكن هي، كانت شبحًا، ظلال امرأة، بقايا وجهها الفاتن كان مدمرًا، وكأننا لم نفترق منذ أسابيع بل منذ دهور. رأيت جسمها الذي نحل وكفيها اللتين ارتجفتا، أما هي فرأت رجلًا عجوزًا، يسير على مهل وكأنه كبُر ثلاثين عامًا.

التقينا في مكانٍ منسيّ من تلك الأماكن التي لا يكترث أحد للوجود فيها، وحدها الأماكن المنسية هي التي تحمل عنا ذكرياتنا حتى نعود إليها فتعيد أوجاعنا أشهى مما كانت عليه.

- أتذكر عندما قلتَ لي: دعينا نحب فقط؟
- نعم أذكر يا ترف.
- الآن فهمت ماذا كنت تقصد، نحن مثل الطيور المهاجرة، مهما أحبّت المكان فستتركه يومًا، لأنها تتبع سربها دائمًا.

كانت على صواب، لا تنجو الطيور التي تشذّ عن سربها، ليس هنا.

- أتذكرين عدد المرات التي قلتُ لك فيها إني أزلتُ رقمك من جوالي بعد كل مشكلة تحدث بيننا؟
- نعم أذكر.
- لم أحذفه ولا مرة!

غدًا يطلع سبتمبر، الفاتح من سبتمبر كما يقال في ليبيا، قبل أيام سقَطَت عاصمتهم في أيدي الثوار، أما أنا فسقطتُ في وحل المشاعر الأخيرة. أول يوم لنا معًا كان قبل سنوات في سبتمبر، وآخر يوم، يا لسبتمبر كيف فعل بي! لقاء ختامي كهذا لا بد أن يكون مؤسفًا، كأسفي عليك.

قلتِ لي على سبيل تغيير الجو:

- إنه شيء خيالي، بن علي، ثم مبارك، والآن القذافي، إذا كنا نحن العرب أقوياء إلى درجة أن نسقط هؤلاء، فلماذا لم نحرّر فلسطين حتى الآن؟
- لأن ذواتنا مكبّلة، إذا لم نتحرر من قيودنا، فلن نستطيع تحرير الآخرين.

وروحي كانت مكبّلة بك، لم تعد مثل السابق، لم تعد تحوم إلا في سمائك.

غريب كيف كان الشهر الماضي، ترقّبٌ في ترقّب، خوف وضياع، كلمات تطير في الهواء، أسمعك بلا صوت، أسمع همهماتك، وأرد عليك بلا حروف، ويح الحروف، تختفي عندما نحتاج إليها.

- إنه مقلب، أليس كذلك؟ لن تتزوجي غدًا؟

- . . .

- ليس مقلبًا؟

لكن الحياة مقلب كبير، وكلنا راكعون أمام ستارة أدائها المحبوك، ليست سوى خديعة كبرى، عرض مسرحي ينتهي بموت الجميع.

- هناك خطأ! كان من المفترض أن يكون حبنا خالدًا!

- لا تقلق يا طارق، لن أنساك حتى أموت، ليس بعد كل ما حدث بيننا! سيظل جزء مني بك وجزء منك بي مهما طال فراقنا.

- ما الفائدة؟ تحبينني اليوم وتتركينني غدًا!

كذبة، ثم حب، ثم كذبة.

يا سيدتي، إن الحياة مثل خطٍ زمني، وأنا لست إلا نقطة في هذا الرسم الكبير، ليست إلا ستة أشهر قضيناها، ستبكين عليّ ستة أشهر، ثم ستتذكرينني بحب سنة، وبعد سنتين ستضحكين على مغامراتنا، أما بعد خمس سنوات فسيكون هناك خيط رقيق يصلنا سينقطع بعد عشر سنوات، وبعد عشرين سنة ستقولين: من هو طارق؟

أنتِ في الخامسة والعشرين من العمر، عندما تشيخين لن تشكّل لك هذه الفترة المتناهية في الصغر أي شيء.

لكن حبي لك يشبه ساعة الرمل، تنتقل ذراته من زجاجةٍ إلى أخرى، ولا ينتهي!

كنت أرفض كل مواساةٍ تبعدك. لماذا نخضع دائمًا؟ لماذا لا نكمل ما بدأناه؟ لماذا ينقص شيء دائمًا حين يكتمل كل شيء؟

أنتِ ملكي الآن وبعد أسابيع ستكونين أبعد من نجوم السماء!

شهيق موجع يذكرني بأننا كنا معًا يومًا، نفسٌ ضيّق، سرداب موحش يسمى مجرى تنفس لم

يعد يحتمل أن تقطعه ذرات الهواء جيئة وذهابًا بعد رحيلك المدمّر.

- هنالك أشياء من الأفضل لنا أن تظل بالقلب، أليس هذا ما علّمتني إياه يا طارق؟

- طالبة نجيبة.

- درسكَ كان عنيفًا.

- الوداع أيتها الجميلة.. كنت دائمًا أقول لك لن يفرقنا سوى الموت، لماذا لا نزال أحياء؟

حسنًا، أنا الآن في رحلة إلى الموت، رحلة مليئة برائحة السواد الغاضب، أتجرع وحدي ماء الخلود الذي أسقيتِنيه، رشفات من ذكرياتك بقلبي، تلك الذكريات التي لا تجعلني أعطش لبشرٍ سواك.

لماذا لا نزال أحياء؟

كان السؤال الأخير في اللقاء الأخير، التفتِّ بعدها إلى جوالك وهو يضيء بلا صوت، كانت أمك تحثك على المجيء بسرعة لإكمال بعض أمور زواجك، وغادرتِ وأنت تهاتفينها، أشرتِ للوداع بيدك واختفيتِ، لم يكن حتى وداعًا، وكأنكِ استكثرتِ عليّ

العناق الأخير، وكأنك استكثرتِ القبلة الأخيرة، وكأنك استكثرتِ أن أنشد لكِ:

**«هكذا يصبح موتي مدهشًا**
**عانقيني، قبّلي عينيّ، وامضِ»!**

لم يكن هناك أحد حين رحلتِ، لم يكن هناك إلا طوفان في رأسي، لم أدرِ كيف استطعت العودة إلى المنزل، جلستُ على طرف السرير محدّقًا إلى الفراغ نصف ساعة، ثم انزويت داخل السرير نصف ساعة أخرى، لم تكن هنالك أية فكرة في رأسي تفسّر ما حدث، شككتُ أني أحلم، أرسلتُ لك: «هل ما حدث حقيقي؟».

لم تردّي قط.

لقد وصلنا حقًا إلى برمودا العاشقين، سقط الملايين قبلنا وها نحن نرشف من الكأس نفسها.

لكن.. في الضفة الأخرى من الحياة سوف أنتظرك.

~ **طارق**

❀ ❀ ❀

وضعت الجوال وأنا أفكر، لم أكن بهذه القوة من قبل رغم ما ينتظرني في الخارج، كنتُ أقوى حتى من طارق الذي لم يستعد حبيبته، كنتُ أجمل بكثير.

لن أموت هكذا، لن يأتي الغد أبدًا.

كنت أفكر وأتألم وأضحك وأهذي في آن واحد، أسمع صوتًا يطنطن في رأسي ويردّد من بعيد:

- اقتلي الألم قبل أن يقتلك!

ثم سقطت على الأرض.

# (13)

إنه يوم جميل.

ما زالت عيناي مغمضتين وأنا أردد ذلك، لا بد أن يكون يومًا جميلًا، إحساسي أخبرني بذلك، حتى عندما فتحت عينًا واحدة متعبة ورأيت بياضًا شديد النصوع أجبرني على إغلاقها من جديد، حركة دائبة وأصوات تتعالى بشكل غير مفهوم، واسمي يتردد أمامي من أصوات أعرفها جيدًا.

أحسست بنفسي أغني كمراهقة أغنية مكتومة: «إنها حفلتنا ونستطيع فعل ما نشاء».

إنه يوم جميل.

أدركت أني كنتُ أتجول على سرير متحرك بين جنبات مستشفى هرع العاملون فيه للإحاطة بي وكأني نجمة سينمائية يتسابق حولها المعجبون.

الآن تذكرت، لم يكن يومًا جميلًا بالنسبة إلى أحد، ذاك هو يوم عرسي، صباح الثامن والعشرين من مارس، الطقس معتدل مع زخات مطر خفيفة، نمتُ

ولم أُفق، استخدم أخي المفتاح الاحتياطي، فتح باب غرفتي، هوى على جسدي النائم بيده وقدمه وأدوات أخرى لم أتبينها. لكنه كان صباحًا جميلًا بالنسبة إلي، كان ألمي يحرّرني، وابتسامتي تزيد مع كل ركلة تدكّ بطني. في صباحٍ كهذا، أجيد التنفّس، أجيد إخراج حبيبات الذلّ المشؤومة التي شهقتُ بها ذات يوم من صدري.

دخلت المستشفى وتعالجت وخرجت ولم ألمح شرطيًا واحدًا يسأل عمّا حدث. عرفت لاحقًا أن أخي تمكن من «لملمة» الموضوع عبر استخدام بعض علاقاته، وبقيت كدماتي تحت طي الكتمان.

عيني المندملة، أضلعي المتكسرة، وجهي المهشم، كلها أمور تمرّ مع الوقت، لكن ما لم أستطع احتماله هو حبسي في غرفتي دون وعود بإطلاق سراح، كل أجهزتي تم حجزها لأجل غير مسمى، أنا الآن حبيسة إلا من نفسي. حبيسة حتى يرضى عني أهلي وحتى أرضى بشروطهم، يأتيني خبز يومي كفافًا مع دموع حارة من أمي.

وكالجنة كانت كلمات طارق، قبل أن يحرقني بالصمت.

لكن لا أحد يستطيع منعي من إطلاق عقلي إلى الخارج، من تسريبه عبر النافذة ليسرح في أفقٍ بعيد، ليرى العالم ولو بعينٍ وحيدة، يطير بعيدًا دون قيد سجّان ولا صوت زاجر، ذاك هو ألمي الذي حرّرني.

«أنا لا أتغير، أنا أصبح أنا أكثر»، هذا ما يقال في الروايات، لذا لم أعتبر أن تغييرًا طرأ علي بقدر ما هو اكتشاف لكينونتي المغيّبة.

ثم يهطل المطر وتأتي رسالة طارق من جديد فتنتعش روحٌ أصابها الشحوب، وكأنه كان يعاقبني مثلهم، لكن رسالته وصلت، رغم كل الحواجز وجدتها معلّقة على النافذة، هذه المرة جاءت رسالته مكتوبة بخط يده، كان خطه قبيحًا كأن لم يكتب بيده قط:

❀ ❀ ❀

## ـ الرسالة الخامسة والعشرون ـ

عندما كنت صغيرًا كان كل شيء يختلف ليلة العيد، الفرح، الأغاني، أضحية العيد، تجمّع العائلات، هدايا الجدّات، كل شيء كان مدهشًا بالنسبة إلى فتىً صغير لم تختبره الحياة بعد، كنت أتوقع أن الجمال والسعادة يملآن الكون.

الحياة التي أضحكتنا مرارًا أصبحت تضحك علينا!

الليلة أنا وحيدٌ إلا منك، أقرأ تباشير الفرح في أعين الجميع، وألمح الابتسامات الراقصة تروح وتجيء، تناولني كأس فرح ثم ما تلبث أن تخطفه قبل أن يصل إلى فمي، الليلة أنا بعيد عن كل تلك الفوضى، أرمقها بوحشة، أختلس نظرة طموحة ثم أقتلها في مهدها.

أول ليلة في عيد الفطر.

كنت أستمع لأحد الأصدقاء وهو يصف فرحته بالعيد لأحد رفقائه، أحسست أني لست في هذا العالم، الأصوات كلها ضعيفة وخافتة.

العيد، الفرح المؤقت، فقدان الذاكرة المتعمد، الاحتفالية الكاذبة، لم أستطع أن أراه بعد أن كبرت إلا كذلك، لا أعلم لمَ تنتابني هذه الرهبة كل عيد، ربما لأني لا أكترث للعبة الحياة هذه، أو لأني فقدت أكثر أحبابي في الأعياد، أو لأن الشعور الغامر بالفرح مخيف، فلا يعقب الجبل إلا الهاوية.

ابتعدت عن صخب الأصدقاء، وتذكرت أغنية جميلة تشدو بها المغنية اللبنانية سلوى القطريب:

«قالوا لي العيد بعيوني. . ع درب بعيد دلّوني. .

غمّضت عيوني ت أشوف العيد. .

لا شفت العيد ولا درب بعيد. .

بعيوني شفتك يا عيوني»

لم يكن العيد، لم يكن الفرح، كنتِ أنتِ فقط، تحوكين أكفان حبنا بزواجك اللعين، قبل أن تقذفي بي في غيابة القبر برسالة قصيرة:

- تم الزواج يا طارق.

لا أعلم حتى الآن كيف وصلتني تلك الرسالة منك، هل كنتِ في أحضانه وأنتِ ترسلين؟ أم كنتِ مستلقية على سريره وهو يرسل نظراته الخبيثة إلى جسدك؟

لا. . أنا متيقن أنك أغلقتِ الباب في وجهه وصحتِ: «اخرج من هنا، فهذا الجسد ليس لك!».

لا أعلم بأي حروف سوف أخاطبك. لقد كنتُ حتى اللحظة الأخيرة من مساء أمس أمتلكك، لكنني فقدتك يا ترف، وكم هو مدوٍّ أثر فقدانك إلى الأبد. لقد رحلتِ هكذا ببساطة، مثلما أتيتِ قبل أشهر، والآن أنا أجمع ما تبقى من شظايا قلبي المتهالك.

الأول من سبتمبر. إذن أنتِ متزوجة الآن؟ ما أقسى هذه الحقيقة، وما أغربها، لا أزال غير مصدقٍ ما جرى، وكيف انتهى بنا الأمر إلى حال كهذه. عظيمة هي قوافل حزني، منهك هو قلبي، ملعونة تلك الأقدار التي ألقت بقلبينا على قارعة الحزن.

ياه.. إنني أحبك جدًا، أخشى أن يخطفني هذا الوجع ويهلكني، أخشى أن كل ما سأهرب منه هو أنتِ. أيتها الشيطانة، لماذا تكون أفكاري المتزاحمة لا تفتش إلا عنك؟ ولماذا أراك تختبئين بين أوراقي وتكتبين اسمك مرارًا، تكتبين أني بدونك شبح هائم وجسد ميت. أنا.. ذلك التعيس المحظوظ، ليتني أقوى من هذا كله.

عبث.

كل الأيام تتشابه إذا مات الأمل، وهكذا كانت أيامي التالية، لا أذكر أي شيءٍ عنها الآن، ولا أعلم كم مضى من يوم وأنا طريح اليأس، كل ما أذكره أيام سوداء كثيرة متشابهة لا أعرف لها أولًا من آخر.

كيف كنا كل شيء، ثم نصبح لا شيء؟

ضجيج السكون لا يطاق.

وضجيجي بك كان مدوّيًا، حتى وأنا أضمحل من حياتك يومًا بعد يوم، ساعةً بعد ساعة، دقيقةً بعد دقيقة، لم يكن شيء ليحطّ من مكانتك.

لم أكن سأكرهك يومًا، أنتِ التي تقولين لي دائمًا: «الممتلئة قلوبهم بالكره، ممتلئة حياتهم بالسواد»، لكن حياتي مسودة بسبب الحب.

حتى جاء ذلك اليوم.

~ **طارق**

❀ ❀ ❀

مرّ يومان وأنا في المعتقل، القيود بدأت تخف، أختي مها بدأت تهرب لي أشيائي المسلوبة، كدماتي بدأت تختفي، وأنا آثرت الصمت، ولم يحادثني أحد بشأن ما حدث قط، كان اتفاقًا غير مكتوبٍ أن أسكت فيسكتوا، أنسى فينسوا، لكني لم أنس يومًا.

سافرت بأحلامي إلى السماء، ونسيت أنني على الأرض.

سافرت إلى بقاع العالم، قابلت عشتار في مملكة فارس، هربت مع هيلين طروادة وعشيقها، قاتلت مع

جان دارك في باريس، طفت حول أميركا مع ساكاهوايا، غيّرت مجرى التاريخ مع ماري كوري، غنّيت مع سيلين ديون، ثم عدتُ إلى غرفتي الصغيرة لا شيء معي، إلا أحلام.

فتحت جوالي الذي استعدته عن طريق مها، تصفحت الرسائل وبالصدفة وجدت رسالة مضمونها: «هناك فن يختبئ داخل كل قلب، فقط أنصتي جيدًا».

لا أعلم من المرسل، رقم عشوائي، هل هو طارق؟ أخاف أن أتصل به، أقفلت جوالي ووضعته على الطاولة، ثم بدأت أفتش مثل مدمنة عن رسالة، لم أجد شيئًا. لذا أغمضت عينيّ وأكملت أحلامي ونمت.

تثاءب القمر وهربت النجوم، صباحك سعيد يا طارق.

كانت أيامًا متشابهة كثيرة، لا شيء يعيدني إلى الحياة، ألوان باهتة تخنقني دون ألم، تحاول أن تجعلني أتأقلم هكذا، لكني لا أستطيع، أنا ابنة هذا الكون الكبير، لا يمكن أن أعيش في قفص، لا يمكن أن أكون قردًا مدرّبًا أفعل ما يطلب مني، ليس بعد أن

ذقت حلاوة الحرية، ليس بعد أن قرأت ما يقوله الشابّي:

**هو الكون حيٌّ يحب الحياة**
**ويحتقر الميْت مهما كبُرْ**
**فلا الأفق يحضنُ ميْت الطيور**
**ولا النحل يلثم ميْت الزهرْ**

الحظ نصف النجاح، والإصرار نصفه الآخر، لم أكن محظوظة لكني كنت مثابرة لذا حظيت بنصف النجاح، لكن ذلك لم يثنني عن مواصلة القفز ومطاردة أيامي. كنت أصنع الجمال في أيامي الكئيبة، أحفر بإصبعي لوحي المحفوظ وألوّنه كل يوم بأشياء قد تبدو تافهة، الجمال في الغالب ليس حقيقة، هو مجرد شهوة بشرية للاختلاف.

لذا كنت أبدو جميلة جدًا في نظري، وهذا يكفيني.

وازداد جمالي برسالة:

## ـ الرسالة السادسة والعشرون ـ

إليك يا سيدة أحلامي أكتب، لعلي أجد رائحتك في رسائلي، يا امرأة صنعتها في خيالي، وعلقت عليها أثواب الأمل. هذا الصباح.. لم أستطع الذهاب إلى عملي، كنت منهكًا بسببك، لم أستطع فعل شيء، شاهدت التلفزيون، فتحت كتابًا، ثم اكتشفت أخيرًا أن كل شيء يبدو بلا نكهة. توسلت إلى الريح أن تنقلني إليك على بساطٍ من حلم، أو تجلب قليلًا من ذرّات عطرك لكي أضعها إلى جانبي آملًا أن تأتي صاحبتها ذات يوم.

هكذا كنت مصعوقًا بك، وهكذا كنتِ تشنقينني كل يوم.

يا صديقتي، كان حبنا أكبر منا، فهرب إلى حيث سينتظرنا في زمن ما. يقولون إني سأنساك، وإنك ستنسينني، مثل أي حب آخر، لكني متيقن أن حبنا مختلف، حتى لو لم يكتمل، فسيبقى الدهر شاهدًا على أن الأرواح تظل متحابة وإن افترقت الأجساد ونأت المسافات. سيبقى لأنك أغدقتِ علي من حبك، ومنحتِني قلبكِ كما فعلت أنا، سيبقى لأنك صاحبة فضل، ولا ينسى المعروف سوى قليلي الوفاء.

لم يكن يجمع اسمينا إلا حرف، ولم يعد يجمع جسدينا إلا حلم. لكنه حلم يستحق أن أتشبث به.

كل يوم أكتشف أني أحبك أكثر. لم يكن شيء ليمحوك من ذاكرتي، لذا سافرت لعل السفر ينسيني إياك، لكني عدتُ إلى باريس، تلك المدينة الرومانسية التي شهدت على حبنا يومًا.

حاولت أن ألتهي بالسفر، فوجدت صورتك في كل مكان، في وجوه الناس، في مقاهي الشانزليزيه، في قوارب نهر السين، في أشجار غابة بولونيا، في اللوحات المعتّقة على جدران قلعة فيرساي، أنا أعيش حلمنا كل يوم، مذ غبتِ لم أحس بغيابك، كنتِ رفيقتي في كل لحظة.

عدتُ كسيرًا إلى صديقي الفلسطيني، لم يعرفني بدايةً، كنت أكبر بسنوات، أخذني إلى إحدى طاولات مقهاه، وقصصتُ عليه قصتي، لم يعقّب، كان مندهشًا من حبي لك. وكيف له ألا يفعل؟ قال لي بعد صمت:

- اسمع يا صديقي، أعلم أن كلامي قد يكون موجعًا، عمرك هو ورقة تقويم، كل ورقة تسقط من المستحيل أن تعود، وكل ذكرى تغيب يحل

مكانها واقع تعيشه، الأيام تركض ونحن لا نحس.

- في كل يوم أقلّب صفحات التقويم إلى الخلف ولا أجدها، أطلب من نواميس الكون أن تعود بالزمن ولا تفعل.
- ولن تفعل، ما أعرفه عن الحب الحقيقي هو أنه ـ كما يقولون ـ يأتي مرة واحدة في حياة الشخص، وكل حب آخر هو محاولة للتعويض، يا صديقي الحياة مليئة بأشياء أخرى غير الحب، عمل، زواج، مسؤولية، وأمور كثيرة تشغل المرء ثم يضيع في زحمة الحياة، ويغيب حبه مع مغيب الشمس، هذه هي الحياة، هل فهمت شيئًا ممّا أقول؟
- افهمني أنت يا صديقي، إن قلبًا لا يستفزه الحب هو قلب فاسد!
- تقصد: إن عقلًا لا يستفزه النجاح هو عقل فاسد.
- ليس النجاح يا ثائر، ليس ذلك الأمر المهم، الحب بذاته مهم، الفشل ليس إلا حدثًا.
- حسنًا يا طارق، آمنّا بالله، الحب مهم، ولكن لماذا تهرب من الحزن؟ الحزن غريزة بشرية

جميلة، تحتاج أن تعيشها أحيانًا لا أن تنفر منها!

- أووه، أنت لا تعي شيئًا!

قمنا من المقهى وذهبت إلى بيته، كان رجلًا مضيافًا، قدّمني لزوجته هناء، كانت فلسطينية أيضًا تعرّف إليها في الغربة، أحبها ثم تزوّجا، هكذا بلا تعقيدات ولا مشاكل ولا أي شيء حزين، حسدتهما كثيرًا، وأخفيت ذلك عن ثائر.

كنا نتابع فيلمًا أرغمني على مشاهدته يبدو أنه شاهده غير مرة، يتحدث عن زوج زُجّ به في السجن بعد أن قَتَل رجلًا دفاعًا عن أسرته وزوجته المحبة، كنا نتابع الفيلم بحضور زوجته رغم أنه دائمًا ما يقول لي: «أسوأ قدر يمكن أن يرميك به التاريخ، أن تشاهد فيلمًا دراميًا وإلى جانبك امرأة».

قال لي فجأة: «اسمع، اسمع ماذا سيقول السجين لصاحبه في السجن».

- ما الذي تمثله لك هذه الأشياء؟

- تقصد تقويمي؟ هذا عيد ميلادها، وهنا أول موعد، هنا ذكرانا السنوية، وهذا يوم فقدتها.

- وذلك المربع الفارغ؟

- إنه اليوم الذي سنعود به كل إلى الآخر!

بعد قليل صاح بي: «انتبه لما سيقوله الآن!».

- احم أسرتك مهما كان الثمن، حتى لو اضطررت أن تَقتل مرة أخرى، لأنني لو اضطررتُ، كنت سأمحو الكوكب بأكمله لأستعيد أسرتي!

كنتُ أرى عينيه تتوهجان أثناء الفيلم وكأن شيئًا مسّه، لكني استحيت أن أسأله عن ذلك أمام زوجته.

انتهى الفيلم، لكن أفكاري تدور حول حبيبتي البعيدة؟ كيف سمحت لنفسي أن أسلمها إلى رجل آخر هكذا؟ كيف استسلمتُ بسهولة، لماذا تخليت عن أحلامي؟ لماذا خفت من المواجهة؟

انهمكت في أفكاري حتى صاح بي كعادته:

- طارق، إذا لم تستطع الوصول، فلا بد أن ثمة أبوابًا كثيرة لم تُطرق.

قلت في نفسي: «حتى باب بيتها لم أطرقه يا صديقي».

سكتنا قليلًا، فاستشعر حرجي من الكلام بحرية أمام زوجته وأشار لها أن تذهب، ثم قال:

- يا أخي فكّها، ما بتسوى عليك! لا أحب

الشخص المتذمر وأود لو باستطاعتي خنق المتذمرين والناقمين! ماذا ستفعل عندما تكبر إذن؟

- أنا كبير بما فيه الكفاية ليبيض شعري!
- يا طارق الأجانب عندما يدخلون الأربعين يقولون أهلًا بالشباب.
- في الأربعين يقولون أهلًا بالشباب؟ متى يقولون مع السلامة؟
- نظلّ نحسب العمر حتى نكتشف أنه انتهى ونحن نحسب.
- إذن لا يجب أن نحسب؟ ينبغي أن نسير فقط بغير هدى؟ في كل طريقٍ تسلكه، أنت تترك وراءك بصمتك الخاصة.
- لا تعقد الأمر يا رجل.

كنت مزحومًا بالحزن، وكان مزحومًا بالأمل، لم يفقد الأمل يومًا، كيف له ذلك وهو الذي عاش بعيدًا عن وطنه عقودًا وما زال يحدوه الأمل كل يوم في أن يعود إلى أرض أحلامه، إلى فلسطين.

أما أنا فأملي فيك بات شحيحًا، كضوء شاحب

في فتيلة قنديل تكاد تنطفئ. كل نجمة تأفل في سمائنا تخلّف وراءها ثقبًا أسود، يصعب إخفاؤه، أحتاج أن أعيد خياطة الكون من جديد.

الأشخاص الذين يعبرون حياتنا بسرعة، هم من يسيرون دائمًا ببطء شديد في ذاكرتنا.

كانت بطيئة بطيئة، لم تتحرك بعد شهر من الفراق قيد أنملة. لم يزد حبها أو ينقص، بقي مثلما هو. وعندما حل الظلام، أحضرتُ حبلًا من الأحلام، وصنعتُ أنشوطة عظيمة قفزتُ بها إلى القمر، ثم نمتُ هناك.

~ **طارق**

❀ ❀ ❀

حبيبي طارق، يا له من مسكين!

مهلًا، هل قلت حبيبي؟ يبدو أنني بدأت أهذي.

تأتي رسائله فتحيا روحي من جديد، حتى رسائله الحزينة كانت تسعدني. مريضةٌ أنا، أعلم ذلك.

كنت أطالع بعض ملفاتي على جهاز الكمبيوتر، وجدت بالصدفة ملفًا يحوي صورًا قديمة لي ونقاشات

مع أصدقاء وصديقات، مقاطع فيديو مع زميلات الثانوية والمتوسطة، ذكريات جميلة أصابتني بالضحك تارة والدموع تارة أخرى، ذكريات قد لا تعني شيئًا لأحد غيري. ملفات قديمة، أبيات كتبتها على عجل، رسائل، أغانٍ، أصدقاء، أعداء! أناس كانوا قريبين جدًا مني ومع الزمن تغيرت النفوس. حتى أنا، كثير من مشاعري تغيرت. كانوا قريبين جدًا إلى قلبي، أقرأ الآن كلامهم ولا يحركون فيّ شيئًا، أما البعض فنسيتهم تمامًا. لا أعلم لمَ أحسست بالخوف.

الأيام تمر، ذاكرة الإنسان تتلاشى بعد فترة، ومن أتوقع اليوم استحالة نسيانه، غدًا يصبح شخصًا هامشيًا، أخشى أن أنسى أيامي هذه مع طارق، أو تمر ذكراه ولا تهزني أو تحرك فيّ شيئًا.

أحسست وأنا أرجع إلى أيامي القديمة أن لا شيء قد يبقى على حاله، أحس أني لست تلك التي تتحدث في هذه المحادثات، أو أني كنت ساذجة جدًا، وأقول: أيعقل أني كنت أتصرف هكذا؟

انتقلت إلى بريدي الإلكتروني ووجدت فورًا رسالة جديدة من طارق:

❀ ❀ ❀

## ـ الرسالة السابعة والعشرون ـ

ـ لماذا تأخرت يا طارق، أنتظرك منذ نصف ساعة!

ـ هل أنتِ نادمة لانتظارك لي نصف ساعة؟ لقد كنت أنتظرك كل يوم وكل ساعة دون أن أملّ!

ما زلتِ يا سيدتي تمارسين غرورك حتى وأنتِ تتأوهين من الألم.

حتى عندما أتيتِ إليّ خانعة كسيرة، أتيتِ بكامل كبريائك لتقولي لي إنك اشتقتِ إلى صديقك القديم.

ـ لستُ صديقك، أنا حبيبك، هل نسيتِ؟

ـ ألم تشتق إلى صديقتك القديمة؟

ـ هل تريدين أن نضحك على أنفسنا؟ لسنا صديقين يا ترف، لسنا صديقين، إن عمري متوقف منذ اللحظة التي أخبرتني أننا سنفترق، ولم يتحرك إلا في الدقائق القليلة التي رأيتك فيها.

كم هو غريب أن يجمع القدر بين قلوب متنافرة، ويفرّق أُخَر متحابة! أنتِ اشتقتِ إلي، أما أنا فتمرّغت في وحل انتظار عودتك.

ـ هل حقًا أخبروك بأنني سأنساك؟ ويحهم يا

طارق، هم لايعلمون كيف أعيش الآن! دعهم يتحدثون، دعهم يعلّلون لحظات حبنا، لكن تذكر بأن ترف أحبتك كما لم تحب امرأة رجلًا قط. أنا تائهة في زحام فارغ، أنام لأصحو، ثم أصحو لأنام.

يا ترف، دارت الدنيا، هل ما زلتِ تذكرين ما جرى بيننا في السنوات الماضية، كنتِ أمامي ولم ندرِ أن العشق سيجمع بيننا يومًا، ثم تحولتِ إلى عاشقة شرسة، عاشقة لا تأبه لأعراف أو أحكام، شرسة أنتِ في اصطيادي، شرسة في حبي، شرسة في رحيلك، لم أثق يومًا بهدوئك!

أنا لا أثق بالغرباء.

وأنتِ غريبةٌ عني، غريبة إلى الحد الذي يجعلني أهرب من ذكرياتك كل يوم قبل أن تقبض علي وتلتهمني حتى الشبع.

كنتِ غريبة حتى في نقاشاتك البسيطة معي:

- هل تفتقدينني حقًا؟
- وهل أنتَ افتقدتَني حقًا؟
- نعم.

- لا أحس أنك تفتقدني.
- أقله أنتِ معترفة أنك لم تفتقديني.
- هل قلت إني لم أفتقدك؟
- عندما سألتكِ قلتِ: وهل أنت افتقدتني حقًا؟
- هذا لا يعني أن إجابتي لا!
- بلى!
- لماذا اخترت أن تكون لا وليس نعم؟

غريبة ومحيّرة تفاصيلك، ألم تقولي لي يومًا: «لا يا طارق، أنت لن تذهب مثلهم، عدني!». لقد وعدتك يومئذ، لكنك اخترتِ لي أن أذهب، اخترتِ أن أختفي وأن تحزني كثيرًا.

لم أختر أنا شيئًا في هذا الحب، لم أختر أن أحبك، ولم أختر أن أبتعد، ولم أختر أن تعودي إلي كرّةً أخرى، لم يكن ذلك عادلًا.

كنتِ تختارين أن تأتي وأن ترحلي، أن ترضي وأن تغضبي، أن تكوني ساذجة أو متحاذقة، أن تكوني وديعة أو شرسة.

شرسةٌ أنتِ حتى في اختيارك أن تكوني وديعة.

لكني لم أبادلك بالمثل، كنت غبيًا واستحققت أن أحزن كل يوم بعدكِ.

لكنّي أذكر لك الكثير من الإحسان، أذكر لك الكثير ولن يغيظني أن أذكره كل لحظة.

كنتِ جميلة حين أتيتِ، ليس مثلما تركتك ليلة زواجك، أغاظني جمالك وشحوبي، إشعاعك وخفوتي، لا يسعدني إطلاقًا أن أجدك هانئة مع غيري حتى إن ادّعيت غير ذلك. لا أريد لك أن تعيشي سعيدة مع زوجك، أنا لست ملاكًا يا سيدتي، لا تتوقعي مني أبدًا أن أبارك زواجك.

كنتُ أرغب بشدة في أن أجدك متعبة وكسيرة، أن تتحطم أضلاعك التي أخطأت في تحديد من تعانق، وهذا ما كان:

- أنا مريضة بك يا طارق.
- وأنا أذوي دونك، منذ تركتِني وأنا أعيش احتضارًا طويلًا لا ينتهي.
- لقد تشاجرت مع عامر!
- أهذا هو اسمه؟ عامر؟
- نعم، نحن نتشاجر كل يوم، لا أطيق البقاء يومًا إضافيًا معه.

لمعت عيناي بفرح، كتمت فرحتي بمشاكلكما، وادّعيت أنني مستاء مما يحدث، لم أقل كلمة واحدة قد تعيدك إليه، قلتِ لي:

- لا أعرف ما الذي أريد أن أبوح لك به لكني جئت إليك يسوقني شي لا أعرفه! أنا أسمع صدى حرماني منك يتردد في كل أركان غرفتي، أشعر بأن كل الأشياء تعاتبني لفراقك وتقذفني بعيدًا عنها، أصبحت منبوذة من أشيائي التي أحبتك وآمنت بك، حتى المساء مختلف موحش قاتل. أحسد العالم لأنه يراك، أحسد كل من تقع عليه عيناك، كل من يرى ابتسامتك وروحك الشجية. أخبرتك مرة بأن نبض قلبي سيكون رغم الفراق موصولًا بقلبك. أريدك أن تبتسم حتى أشعر بذلك في قلبي، أرجوك، لا أريد للحزن أن يقتلك يا طارق.

- وماذا بعد الابتسامة؟ هل ستعودين إلي؟

- أنت تشعر بأنني قد تخليت عنك واستسلمت سريعًا ولم أكن بمثل الإصرار الذي واجهتك به حين أحببتك، أعلم ذلك، لكنك تعلم كل تلك الظروف التي حالت دوننا. أنا قد أنسى كل شيء

مر في حياتي، لكنني مؤمنة بأنني لن أنسى شيئًا واحدًا في حياتي أبدًا.. أنت. لقد عشت معك لحظات من الجنة، لحظات من نور بددت بها ظلامًا حالكًا كان يحيط بي.

- وماذا بعد ذلك يا ترف؟ ماذا بعد؟
- لا كلمات أتكئ عليها حتى أتماسك وأتحدث لك بما يجول في قلبي. أنت أخبرني. ماذا بعد؟
- تتركينه ونعود كما كنا، سأتزوجك على الفور!
- ...
- لا تريدين؟
- سأفكر في الأمر.

تفكرين في الأمر؟ إنه ليس أمرًا، إنها حياتي، وأنا معلّقٌ بين السماء والأرض أنتظر قرارك، يالك من مجرمة، كنتُ لأتخلى عن حياتي كلها من أجلك، وأنتِ ستفكرين!

~ **طارق**

## (14)

لا يهمني من أنت، يهمني ما تقول.

لا يهمني ماذا تدرس، يهمني ماذا تُنتج.

لا يهمني ما تقرأ، يهمني ما تكتب.

كنتُ أستعد لتوجيه هذه الجمل إلى الكثيرين ولم تتح لي الفرصة لفعل ذلك مسبقًا. لا أحب الحكم المسبق على الأشخاص مثلما لا أحب الحكم على أفعالي التي قد تبدو للوهلة الأولى غريبة ومجنونة.

كفّوا عن الأحكام الجاهزة، كفّوا عن الإيقاع بالنوايا، كفّوا عن إيذاء الناس وستشعرون أخيرًا بالطمأنينة، كفّوا عن الكلام واستمعوا.

من يتكلم أكثر مما يسمع، سيهدم أكثر مما يصنع.

الكلمات تقتلنا مثلما تصنعنا، كن ذكيًا واصمت. أغمض عينيك، أغلق أذنيك، واستمع لصخب الحياة

في داخلك. استمع للموسيقى التي تقودك إليها تلك الأصوات بالداخل، اتبعها، ولن تخسر أبدًا.

يستفزني الشخص الناقم على الحياة، الذي يحاول انتقاد أي شيء جميل لمجرد أن يخالف الخط السائد رغم أني قد أبدو واحدة منهم.

البعض منا يعيش كالقاتل المأجور، يستمدّ عيشه من الموت، أو كالحانوتي الذي يبني بيته على جثث الأموات، تبًّا لها من حياة.

كنت أطالع فيلمًا وثائقيًا لأسد يهجم على أحد العاملين في حديقة حيوان، كان يهجم عليه بشراسة وكأن حقدًا أزليًا يسكنه تجاه ذاك المسكين، لكنه نجا من الموت بأعجوبة، واستغرق علاجه ثلاثة أشهر في المستشفى بسبب ذلك الهجوم الغادر. العجيب في الأمر أن هذا الرجل عاد لزيارة الأسد مرة أخرى، لكن الأسد أخذ يتصرف ببرود ولم يعره انتباهًا، لم يعرف أنه قد آذاه، لم يعرف أنهما قد تقابلا مسبقًا قط.

فكّرت أن أكثرنا يتصرف مثل ذاك الأسد، أو القاتل المأجور، لا يتعمد الأذيّة لشخص بعينه، بل يمارس ما هو بارعٌ فيه تجاه من يصادفه متى تطلّب الأمر.

كنتُ مستغرقة في التفكير قبل أن تقطع علي مها حبل أفكاري بصوتها المستفزّ:

- اللي ماخذ قلبك يتهنّى به. عندك شاحن جوال؟
- قلبي ليس مع أحد، تكلمي عن نفسك.
- لا تخافي، أنا أحب أن أعيش بعالم الحب على طريقتي الخاصة.
- ما شاء الله، الله يوفقك بعالمك.
- أحب شخصًا من بعيد لبعيد، أسمع عنه ولا يسمعني، مثل الجريدة، استيقظ صباحًا لأقرأ أخباره ثم أذهب إلى مدرستي. وفي المساء، أفكر قليلًا ثم أنام، وهكذا لا أحزن.
- عرفت من تحبين، ما دام يظهر بالجرائد يوميًا، حتمًا محمد عبده!
- لا يا شيخة؟ تنكتين؟ أنا غلطانة أسولف معك.

قامت مها غاضبة وأغلقت الباب في وجهي وأنا أضحك حتى أنها نسيَت أن تأخذ شاحن الجوال الذي جاءت لأجله، كنتُ سعيدة هذه الأيام، فلم يفتحوا

معي موضوع الزواج قط، يبدو أنه تم إلغاؤه أو تأجيله إلى أمدٍ غير معلوم.

وسعدتُ أكثر عندما وجدتُ رسالة جديدة من طارق محشورة في حقيبتي:

## ـ الرسالة الثامنة والعشرون ـ

الحياة رقصة لذيذة.

ارقصي، ارقصي مثل نحلة، مثل أغصان يلفحها الهواء، تحرري من كل شيء، أضيئي زر التشغيل وتحرري، من الناس ومن المكان والزمان ومن المشاعر، اقفزي في الفضاء قدر استطاعتك ولا تستمعي لمن يحاول أن يعيدك إلى الأرض. ألقي جانبًا بكل شيء فهذه اللحظات يتوقف فيها الوقت، في هذه اللحظات تملكين العالم كله ولا يملكك شيء.

كوني أنتِ فقط قبل أن نكون نحن، كوني ذاتك المفقودة، روحك الطائفة في الملكوت، لا جسدك الذي ينهشه كل ليلة زوجك قبل أن ينام.

كوني طفلة، فالأطفال يرون الألوان كلها، قبل أن تختفي تدريجًا لونًا فلونًا، ثم تتشح بالسواد.

لم أعد مرتعبًا.

رأيتها مقبلة كوجبةٍ دسمة تنتظر أن ألتهمها، لا أكترث إن كانت متزوجة أم لا، أنا معها الآن، وحدنا، وهذه اللحظة لي، ولن يدمّر سعادتي أي شيء، احتضنتها بشدة وطالت بيننا القُبل حتى تفلّتت مني بصعوبة.

- هذا لا يصح يا طارق، أنا متزوجة!

- لا يهمني ذلك، أنتِ لي الآن، لا يهمني ما يكون بعد ساعة.

- أنانيٌ أنت، لا تفكر إلا في سعادتك!

كنتُ أنانيًّا في حبّي وكنتِ أنانيةً في أن تفكري، أن تقارني بيني وبينه لتقرري من الأصلح، كان أمرًا مقيتًا، كنتِ تقيسين الأمر كما لو أنك تتبضعين ثم تحتارين بين نوعين من الشوكولاتة، أيهما سيكون ألذّ. لسنا ألواح شوكولاتة يا ترف حتى تقرري مصيرنا بهذه السذاجة.

- غدًا تعرف مصيرنا.

كانت تتلاعب بي هذه الشيطانة، وكأني دمية بين يديها تقلّبها حيث تشاء، لم يكن يومًا فحسب، كان قرنًا، تجعّد الزمن حينئذ حتى كاد يفتك بي، ولم يكن بيدي إلا الصبر، وجئتُ اليوم التالي.

صحتِ فيّ:

- لقد قررت!
- ماذا؟
- أنت تعرف قراري.

كنتِ تبتسمين لي بخجل وتعقدين سبّابتيك معًا، وأنا أنتظر كأني لا أعلم، لكني أعلم كل شيء، أعلم أنني أهم رجل في حياتك، وأن الآخرين لا شيء.

- أنت قَدَري يا طارق، لقد انفصلنا وعدتُ إليك، لا أستطيع أن أتركك أكثر، أنا امرأتك أنت، ولن أكون إلا لك.

لم أستطع الوقوف، شعورٌ غامرٌ بالسعادة اجتاحني، سقطت على صدركِ، تعانقنا دقائق لا أذكر الآن عددها، كانت أجمل دقائق حياتي.

وكأنني استيقظت بعد إغماءة سكّر، وكأن أحدهم

انتشلني قبل أن أموت ووضع قطعة من البسكويت في فمي.

شعرتُ بالحرية، بأنني أتنفس من جديد، بدأ النبض يعلو ويعلو مثل طبلة حربٍ تدق للمنتصر، مثل شهاب يخترق سوادًا حالكًا، وكأننا لم نفترق، صرختُ بأعلى صوتي نشوة وفرحة قبل أن تضعي يدكِ على فمي وتجبريني على ابتلاع كلماتي حتى لا تشي بنا سعادتنا.

لكن جدران هذه المدينة لن تشي بنا مرة أخرى، لن أتركك بعد الآن.

لم أسألك للحظة عن تفاصيل طلاقك كما لم أسألك قبلًا عن تفاصيل زواجك، لم أسألك كيف وافق أن يتركك بسهولة كما لم أسألك كم ليلة التحم جسداكما.

لم يعد يهمني شيء سوى حقيقة أنك عدتِ.

- سأتزوجك يا حبيبتي، غدًا أطرق بابك.
- لا يا طارق أنسيت أني مطلقة؟ يجب عليك أن تنتظر ثلاثة أشهر.
- لا أستطيع، أخشى أن يحدث شيء يحول بيننا مرة أخرى.

- لن يحدث يا حبيبي، لا تخف.

رجعتُ إلى بيتي وأنا أدندن: «أغدًا ألقاك؟ يا خوف فؤادي من غدِ.. يا لشوقي واحتراقي في انتظار الموعدِ».

ورجعتِ أنتِ تدندنين: «كلّما ابتسمتَ لي، يضيءُ منزلي، أحيا على ورود.. أَنشدِ الهوى معي، في أُنسِ مربَعي، على رؤى العهود».

لم تجمعنا الأغاني!

لكن الحياة جمعتنا من جديد، الحياة التي كانت تحتال علينا استطعنا أخيرًا أن نتغلب عليها، هل تصدقين ذلك؟ لقد خدعنا الحياة!

~ **طارق**



يا الله.

كنت ممتنّة كثيرًا لهذه الرسالة البهيجة، فقد ساهمت في تشكيل يومي، جعلتني أغنّي، أرقص، أطير في شلالات السعادة، أمطّ شفتيّ أمام والديّ وإخوتي كطفلة، نسيت كل المتاعب السابقة، ليس

لأنني ساذجة، ولكن لأنني أشفقت على نفسي من أن تمضي الأيام وأنا أربّي حقدًا فوق آخر، وغضبًا فوق آخر.

سامحت أهلي رغم ما فعلوا.

سامحت طارق لحبه امرأة غيري.

سامحت الجميع، هكذا بكل بساطة ودون تفكير وتعقيدات.

لم يكن هناك وقت لأضيعه في الغضب، الحياة أقصر بكثير. اعتبرت كل شيء سابق بمثابة تجارب وخبرات تساعدني على أن أتصرف بشكل صائب مستقبلًا، كل ما يحدث وما حدث يعتبر مفيدًا بطريقة ما.

لسببٍ ما، لم يعد طارق يعيرني انتباهًا. وكأن قصته قد أشرفت على الانتهاء وسينتهي منها قريبًا، ومني.

لا أريد منه أن يحادثني، أريد فقط أن يتذكرني كفكرة تجول في رأسه، مثل ذبابة تطنّ عند أذنه، أن ينتبه لوجودي. لا أطلب أكثر.

مرّت أيام كثيرة وأنا قابعة في البيت، بعد أن أجّلت الفصل الجامعي أصبح يومي طويلًا، لا محاضرات صباحية، لا مذاكرة، لا خروج مع الصديقات بعذر الدراسة معًا، لا دكتورة هدى، لا شيء من هذا كله، لذا أكلني الملل من كل الاتجاهات.

ثم وصلتني رسالة:

❀ ❀ ❀

## ـ الرسالة التاسعة والعشرون ـ

إذا تبخر الأمل في روحٍ، أمطر في أخرى.

وهكذا كانت أيامنا اللاحقة، نتبادل فيها الأمل والكآبة، النشوة واليأس، نتعاكس الأدوار كل يوم، فحين أجيء بهمّي وألقيه بين كتفيها، كانت تأخذ بيدي وترسلني إلى السماء، ثم ما تلبث أن تسقط هي قبل أن ألتقطها كصقر.

كنا نعبث بالأيام، نتسرب عبر شبابيك الحب إلى كونٍ فسيح، نتخطى قوانين الجاذبية كل يوم ونعيث في الكون جنونًا.

حبنا لوحة سريالية لم يرسمها دالي، مسرحية عنيفة لم يحك فصولها لوركا، قصيدة رمزية لم يكتبها نيرودا، معقّدٌ حبنا يا سيدتي، معقّدٌ إلى الحد الذي يجعلني قد أقضي عمري كله لفك ألغازه ولا يكفيني عمرٌ واحد.

إن حياتنا تاريخ، وتاريخنا حياة.

حياتنا هي تلك النقاط الصغيرة المضيئة في قماش التاريخ، هي الوخزات البسيطة في جدار ضخم لا ندري هل أحس بطرقنا له أم لا.

وتاريخنا الذي مضى هو حياةٌ بأكملها، حياةٌ نعوم في ذكرياتها كل يوم لكي نمدّ أنفسنا بالأمل، بالمشاعر، بالوهج.

السرمدية التي تلفّني حين أراك تجعلني خالدًا. تلك اللحظات اللانهائية من النشوة تفوق إمكاناتي على الدهشة. التسمّر الذي يجتاح الدنيا حين تحطّ عيناي عليك يوعز لي أن ألتقفك وأطير فوق خارطة العالم، أمشّط الأرض كلها عند أول ثانية من النظر إليك. أكون إنسانًا.

في هذا العالم الذي زادت فيه العقول وقلّت المشاعر، من أنا؟

لن أعرف كنهي إلّا في جوارك، أخبرتك مرارًا بذلك فلا تعيدي السؤال يا ترف!

- أتحبني؟

إذا فكرّت أن سؤال امرأة لك عن شيء ما هو سؤال عفوي، فكر مرة أخرى!

لم يكن حبّك عفويًا، فكيف تكون أسئلتك كذلك، أنتِ امرأة، ذلك الكائن الأسطوري الذي حاول الرجال قتله واستعباده آلاف السنين لكنّه بقي صامدًا.

احتمالية حبّك كانت مدهشة، احتمالية أن نلتقي يومًا تحت سقف واحد، احتمالية أن نصنع مهرجان أطفال كلهم انبثقوا منا، أن تكوني في جواري في 2070 عندما أبلغ التسعين وتساعديننني على تذكر ما حدث في 2011، أن نكون طفلين في جسدي عجوزين، أن تشهدي ساعة مماتي الرتيبة التي لا يهتم بها أحد أكثر منك.

تلك الاحتمالات الصغيرة هي التي تشكّل الكون.

فلتمضِ أيها الزمن أو فلتتوقف، إن غدًا لستِ

في خططه لا يعد غدًا، محض يوم، باردٌ ميت، لا يهمّني أن أعيشه وإن عشته.

هل ترين فرحة الأرض بالمطر، كيف تتلقف زخاته بعطش، يصفع خدها المتعب لتصحو، يدغدغ تعرجاتها لتضحك، يطقطق جسدها لتتنشط، هذه أيامي بوجودك.

لو وعدوني بألف جنة، لن أختار إلا هذه الحياة!

لن أضحك بملء إرادتي إلا هنا، لن أحثو التراب في وجه آلامي إلا هنا، لن أسير حالمًا في شارع مقفر عند الشروق إلا هنا، لا أريد أن أعيش إلا هنا، هنا فقط أتنفس، أسحب ذرات الأكسجين بنهم وأرفع رأسي عاليًا مادًا ذراعيّ في السماء وأنا أركض، أصرخ في وجه الكون: أنا هنا.

أنا هنا يا كون، أنا ذلك الذي عاش آلاف السنين وتحدّى كل شيء، تحدى الزمن والحروب والكوارث والمآسي حتى يجيء اليوم ويقف على ركبته ملتقطًا يد فتاته، يقبّلها وهو يقول: «أنتِ خلودي ومماتي يا رفيقة العمر».

أنا عقلٌ لا يهدأ، وأفكارٌ لا تموت، ومشاعر لا

تتفتّت، ذلك أنا حين عرفتُ سر الكون الأعظم المودع دواخلنا، نحن الذين نفتش في كل مكان لم ندرِ أنّه هنا، يسكننا منذ الأزل.

وأنتِ جوهرتي المفقودة، الكنز الذي بحثت عنه منذ الصغر، لم تكوني بعيدة قط، كان مغناطيس الأرض يقترب بنا يومًا فيومًا، كان مقدّرًا لي أن أحبك.

كيف أشكر السماء على حنوّها؟ كيف؟

مشاعري نحوكِ لم تكن وليدةً يومًا، لم تخلق بل انتقلت عبر أثير الكون الأزلي، تناسلت وتكاثرت حتى جاءتني كالفوضى، وجئتُ أنا أتعكز على ماضٍ سحيق يسكنني، جئتُ إليكِ لأنني منكِ.

قلتُ لكِ:

**فليت الذي بيني وبينك عامرٌ**
**وبيني وبين العالمين خراب**

فهمتِ ما أقصد سريعًا ورددتِ:

- ليس بيننا عامر، ليس بيننا أحد، فقط أنا وأنت.

أحب أن تفهميني دون تصريح، أحب ذكاءك وجنونك، أحب سذاجتك أحيانًا، أحبك كما أنتِ، وكأني حصلت عليك عبر دعوةٍ مستجابة.

ولكن كما يقال: «حين تدعو لهطول المطر، عليك أن تتدبر أمر الطين أولًا».

~ طارق



لسببٍ ما كنت أفكر في حقيقة طارق، أبحث في رسائله القديمة، أفتش في كلماته عن نفسي، أبحث وأبحث وأبحث ولم أعرف من هو ومن أنا.

ولسببٍ آخر كنت أتوقع أن يلتقيني اليوم، توقعت ذلك وأنا خارجة برفقة أمي لزيارة خالتها المريضة، رأيته عند إشارة المرور يبتسم ويغمزني، اخضرّت الإشارة القريبة من المستشفى ومضى، ثم وجدته أمامي في ردهة الانتظار، لم ينتبه لي.

لم يكن وحده بل برفقة امرأة ملفوفة بعباءة واسعة جدًا من رأسها حتى أخمص قدميها، رأيتها بعد قليل وحدها في زاوية بعيدة تتمايع في الكلام مع رجل يغازلها ويناولها ورقة حشرتها تحت عباءتها قبل أن يراها أحد.

اقتربت منه، كان ينظر بعيدًا، اقتربت أكثر منه،

هممت بمحادثته قبل أن يأتي أحد معارفه وهو يناديه: أحمد، تعال!

لم يكن هو، ذلك الطارق الذي أراه في كل مكان، وأنتظر أن يراني.

لكنني لم أجد إلا رسائله، تحاصرني في كل حين.

عدت إلى البيت وأنا أفكر في ما حدث، أغلقت باب غرفتي، وضعت سماعات الأذن وشغّلت موسيقى خفيفة وأوشكت على النوم قبل أن أسمع صوتًا يهمس بقربي: «سلمى، سلمى».

قفزت من مكاني وأبعدت السماعات، التفتّ يمنة ويسرة فلم أجد أحدًا. حاولت النوم ولم أستطع، مرت عشر دقائق قبل أن أسمع طرقًا خفيًا على الباب، تسمرّت في مكاني.

نظرت نحو الباب ولمحت طرف رسالة يظهر من أسفل، سارعت لأخذ الرسالة وفتحت الباب فلم أجد أحدًا، البيت هادئ والجميع في غرفهم!

عدت إلى غرفتي وفتحت الرسالة:

❀ ❀ ❀

## ـ الرسالة الثلاثون ـ

لماذا عليّ أن أشرح في كل مرة للقدر فرط محبتي لكِ؟ لماذا أخشى في كل دقيقة أن يغضب عليّ ويأخذك عنوة من أمامي؟

كانت الأسابيع الجميلة تمضي مقتربة من يومنا الموعود، شهر مرّ على طلاقكِ السعيد، الضحكات المتطايرة منا أزعجت الساكنين في الأعلى، ثم انتبهنا على وقع تلك الكارثة.

كنّا معتادين أن نلتقي في الأيام المميزة، نعتقد أن ذلك يجعل حبنا مميزًا. هذه المرة كان يوم 11 ـ 11 ـ 2011. وكان مميزًا جدًا ذلك اليوم، مميزًا إلى الحد الذي تشابهت فيه كل أيامي التالية.

- أنا حامل يا طارق.
- ماذا؟ ماذا تعنين؟ أنتِ تعلمين أننا لم نفعل شيئًا معًا!
- ليس أنت! بل عامر!
- ماذا؟
- . . .

كانت كارثة.

قلت لنفسي: سأستعيدك، فأنتِ لي، وقال لي الزمن: هيهات.

لم أبكِ. لم يتأثر فيّ شيء ذلك اليوم، فقدت الإحساس تمامًا، حتى أنني ضحكت، لم أناقش معك شيئًا، تركتك تبكين.

كنتُ أعلم.

كنت أعلم أن الحياة لن تتركنا سعيدين هكذا.

كل تلك اللحظات المفرطة من السعادة! لم يكن ذلك صائبًا. الحلاوة الزائدة للأيام مضرة تمامًا ككل الأشياء الأخرى، مثل جرعة السكر المفرطة في فنجان شاي، مثل الطعم الشديد الحلاوة في قطعة بسكويت، لم يكن ذلك صائبًا قط.

ثم انتبهتُ فزعًا، بدأت أدرك ما يحدث، إنّ شيئًا جديدًا لم يحدث، كل الأمر أن الأشياء عادت إلى صوابها.

- يجب أن تسقطي هذا الطفل فورًا.
- إنه طفلي!
- ليس طفلك، إنه ابن الشيطان! اسمعي سوف

أبحث عن طريقة مناسبة لإنزال هذا الشيء المتعلق في بطنك، ربما بإمكاننا...

- كفى يا طارق! هذا ابني، هل نسيت؟
- هل جننتِ؟ ليس ابنك، هذا ابن خطيئتك.
- لا أسمح لك بإهانتي، عد إلى عقلك!
- حسنًا لنهدأ، إنه ليس طفلًا أصلًا، مازال في طور التكوين، لن يضيرك أن تفقديه.
- لا أستطيع يا طارق، سامحني أرجوك.

هكذا بكل سهولة، كان ثمني بخسًا، وأنا الذي حسبتُ أني ملكت كل شيء في يدي. كنتُ أقبض على الهواء. كالزئبق كنتِ تتفلّتين من يدي في كل مرة.

- لا تغضب مني، حبيبي...
- لسنا أحبابًا.
- أنت حبيبي.
- لسنا أحبابًا، نحن غريبان مع الكثير من الذكريات.

عادت الأيام القاتمة، عاد الوجع، لكن هذه المرة لم تكن أيامي سوداء كعادتها، كانت رمادية،

كان كل شيء فيّ يبدو مندهشًا مما حدث، وكأن الدهشة حلّت محل الحزن، وكأن الأغنية تُغنّى بالمقلوب:

«رجعوني عينيك لأيامي اللي راحوا».

أصبحت: «راحوا الأيام اللي عينيك رجعوني لها».

«إنتا عمري اللي ابتدى بنورك صباحه».

أصبحت: «صباح نورك ابتدى بعمري».

قتلتِني أولًا ثم مضيتِ لتمارسي حياتك. وكأن حياة أخرى لم تتدمّر، وكأن شيئًا لم يكن، وكأني لم أكن. كانت نهاية باردة.

قبل الرحيل تصبح اللقاءات الباردة تشبه الأحاديث الهامشية في المصاعد، والضحكات كالوجوه العابرة التي نلتقيها في محطات السفر ثم لا نتذكرها.

~ طارق

# (15)

كانت أصوات العصافير جميلة وهي تغنّي في الخارج، الأشجار تتماوج على صوت صفق الريح، والغيوم تنسدل على صفحة السماء مثل ملاءة حريرية، لكن أيًا من هذا لم يكن يغريني.

أعددت الفطور في العاشرة قبل أن أوقظ أهلي، يجب علينا الذهاب باكرًا اليوم لزيارة أخي الذي تزوج للمرة الثانية لتهنئته والتعرف إلى زوجته وإهدائهما مبلغًا رمزيًا كمجاملة.

يوم آخر من المهام الروتينية، التعامل مع الرجال يشبه التعامل مع أطفال، لا تحب إغضابهم. والتعامل مع الأطفال يشبه التعامل مع الرجال، لا يمكن إهمالهم.

لم نكمل طعامنا بعد اتصال أمي وطلبها أن نلحق بهم سريعًا، ارتدينا ملابس الخروج على عجل.

ركبنا السيارة وهممنا بالانطلاق نحو بيت أخي

قبل أن أتذكر أني لم أحضر حقيبتي. عدت سريعًا إلى البيت وصعدت إلى غرفتي لإحضار الحقيبة، لكني لمحت ورقة ملقاة في زاوية الغرفة.

كانت رسالة من طارق!

## ـ الرسالة الحادية والثلاثون ـ

أيّ فرحٍ لم يأفل؟ أية أيامٍ لم تمضِ؟

اللحظات تهرب كالشلال، السعادة تفرّ كجاموسٍ مُطارَد، والأشخاص يُنسون بعد حين. لم نكن لبعضنا إلا كضحكة طويلة بدأت تفتر بعد نصف دقيقة ثم عاد الفم للعبوس.

لماذا علي أن أكتب لك، ألم تفهمي بعد؟ أنا لا أجيد الكتابة، فقط أجيد أن أحبك.

يا زمني الجميل، يا سرابًا، أو يا حقيقة، كن ما أنت كائن فبدونك لم أكن ولن أكون. كن خيالًا فأنت أطهر من الواقع، كن كذبة في زمن الكذب.

عام 2011 كان بقربك جميلًا ومتعبًا، كانت

مفاجأتك أكبر من قدرتي على التوقع، وكانت آمالي البسيطة لا تنوي أبدًا أن تضمك في قائمتها البيضاء.

ضجيج الأشهر السابقة بدأ يسكن إلّا من طنينٍ وحيدٍ مستمر، كنغمة ناي تُعزف منفردة بعد أن هدأ ضجيج الآلات الأخرى.

النهايات الباردة أسوأ النهايات، أنصاف النهايات.

أريد أن أتألم، أن أبكي لفراقك كثيرًا، لا أريد أن ينتهي كل شيء ببرود، لا أريد أن تأكلني الوحشة، أن تنهش عظامي ببرود كما تنهش الديدان جيفةً ميتة.

مازلتُ حيًا!

لم أقبل أن أموت كما ماتت كل لحظاتنا السابقة، لذا فتحت البريد الإلكتروني وبدأت أكتب لك:

ترف، اسمعيني جيدًا، فقد يكون هذا آخر ما تسمعينه مني. حذارِ أن يقتلك الحب، حذارِ أن تصدقي ما يقوله الشعراء عن الحب.

لكن صدّقي.. أنا أحبك.

أحبك جدًا، لا أستطيع أن أكون في حياة لستِ

جزءًا منها، لم أعد أرى الأشياء إلا من خلالك، لم يعد يعنيني فضاء لا تسكنينه، لم تعد ترهقني الأشياء التي كانت ترهقني قبلك.

لا شيء هنا يغري، لست سوى عاشق آخر قذفه الموج. عاشق كان يسألك كثيرًا: أحقًا أنتِ حبيبتي؟ أحقًا ما فعله القدر حين جمع قلبينا ثم قال لهما: كونا، فكانا أجمل قصة حب وأكثرها إيلامًا؟ كيف جئتِ يا صغيرتي؟ كيف أوقعت بك خطيئة الحب؟ كيف كنتِ أنت وكنتُ أنا؟

قولي بربك كيف تفرقنا المسافات وتجمعنا المشاعر؟ كيف أحس أنك هنا أمامي تبتسمين لي وبيني وبينك عشرات الأميال؟ قولي كيف نرضى بعبث الحياة؟ كيف تلتهمنا أقدارها؟

موجعة أنتِ موجعة.

يا جنتي المحرمة، لماذا تختفين بعد أن أقسمتِ إنك لن تكوني إلا لي، لماذا نضجتِ معي، وكبُرت أحلامك معي، وعرفتِ الحياة معي، ثم.. لا شيء!

ما ضرّ الحياة لو أننا لم نفترق؟

قولي لي كيف منذ أحببتك لم تعد الأشياء هي

الأشياء؟ كيف أصبحَتْ كل أغنية وشعر وجملة تشير إليك؟ كيف أراك الآن وأنا أسير وحدي في نقطة بعيدة من غرب الرياض، وأرى ظلّك يهوي من السماء ثم يستقر إلى جانبي، يشوّش أضواء السيارات المارة أمامي، ثم يخترق وحدتي اللعينة ويقبض على يدي؟

أهذه أنتِ؟ لقد اشتقت إليك كثيرًا، لم أرَ وجهك منذ ثوانٍ.

قبل أن أرسل إليك ما كتبت، فاجأني اتصال منك، كنتِ تتكلمين بهدوء:

- طارق.
- ماذا تريدين الآن؟
- أتكرهني؟

ضحكتُ ضحكة باردة:

- هه ربما.

الابتسامات الباردة قبل الرحيل تشبه فوّهة البركان الباردة، ستظل تغلي من الداخل، ثم ما تلبث أن تنفجر متى تفتقت فيها الذكريات.

كانت نصف مكالمة لنصف نهاية، تحدثنا فيها بأنصاف الكلمات، كنت نصف أكرهها، وكانت نصف تحبني.

لم أرسل تلك الرسالة قط.

كيف أحسست لوهلة بأني وُلدت معك من جديد؟ كيف أحسست يومًا أنك تزرعين السعادة؟ كيف لم أتنبّه لترياقك الذي حقنتِني به في الوريد حتى تسممتُ بك؟

لقد كان شوقي إليك جريمة عاقبني عليها النسيان بسنواتٍ من الرحيل.

كنتُ أتذكر، الذكريات تخنقني من كل جانب، تسقط عليّ كرذاذ مطر، كتعويذة ساحر، لا شيء يدثّر هذا الحنين أبدًا، لا شيء، كل أيامنا السابقة بدأت تقصفني كمجرم حرب، ذلك اليوم الذي طلبتِ مني بخبث رأيي في نصوصك الأدبية:

- ما رأيك في هذين النصّين، أيهما أجمل: «أريد الولوج، قل لضلعك أن يتنحى، ماذا يوجد خلف جدار صمتك؟ أأسلاكٌ شائكة، أم جنائن؟» أم: «أحبك لأنني أهرب إليك من كل شيء، من الحزن والألم واليأس الخانق، لأني أرمي سواد الأيام خلف ظهري حين أرى عينيك المليئتين بالفرح».
- كلاهما جميل.

- أعلم، لكن أريد منك اختيارَ واحدٍ فقط!
- مممم النص الأول.
- الأول ليس لي، لكاتبة تدعى أثير خالد، النص الثاني لي! شكرًا لاختيارك!

لماذا كنتِ تحبين أن تشعري بالهزيمة؟ حتى في خيالك، لم تستطيعي أن تتحرّري أبدًا، خذلَتك نفسك، لم تستطيعي أن تطيري:

- أريد أن أطير إلى السماء، أن أحلّق بعيدًا عن كل شيء.
- تستطيعين أن تطيري، طيري بأفكارك.
- ليست أفكاري، إنها روحي التي ذَوَت رَهَقًا.
- ومن منّا ليس كذلك؟

تداعت عليّ الذكريات، أجهزت عليّ كفريسة:

- أنتِ ضعيفة يا ترف. يجب أن تتخلصي من هذا الضعف لأجل مستقبلك، لأجل كتابك القادم، لأجل اسمك وحياتك المستقلة، سواء كنتُ فيها أو لا.
- أنا فاشلة، فشلتُ حتى في إنهاء روايتي.

- تقصدين أنك نجحتِ في إنهاء جزء كبير منها!
- أنا أضعف من أي شيء آخر.
- سوف تعيشين ظلًّا.
- أنا ظلٌّ مذ وُلدت.
- إلى متى؟
- إلى أن أموت!
- وهل ترضين أن تعيشي وتموتي بهذه الطريقة؟
- المهم أن يرضى عليّ أهلي.
- وهل يرضى لك أهلك هذه الحياة؟
- لم تعد تهمني الدنيا.
- لماذا هذا الموت بعينيك؟ مسجونةٌ أنتِ، غدًا تذكرين كلامي!

لم تكن مسجونة فحسب، بل مجنونة، حتى عندما أخبرتني أنها ترغبُ بأن تتحول إلى هواءٍ أتنفسه ثم يموت برئتيّ. الموت، الموت، الموت، كان يلفّنا من كل اتجاه.

وعندما أخبرتك أنك انهزامية تستسلمين بسهولة، أقررتِ بذلك، قلتِ إنكِ في مرة واحدة فقط لم تستسلمي، عندما أحببتني ورفضتك!

ثم ذلك اليوم الذي تشاجرنا فيه:

- يجب أن نبتعد كل عن الآخر فترة من الزمن.
- موافق!
- حقًا؟
- إذا كانت رغبتك، نعم.
- أنا لا أتحدث عن رغبتي هنا، أنت وافقت!
- أنا وافقت على رغبتك فقط.
- لم تبدِ اعتراضًا لذلك لأنك لم تعد تحبني كالسابق!
- في كل مرة تفترضين أشياء خاطئة وتعتبرينها هي الحقيقة.
- كل ما أحتاج إليه هو كلمات. كل مرة أفترض شيئًا لأني أريد كلمات، كلمات فقط، هل طلبي كبير؟

لكن كلماتي لم تكن لتبقيك، ولا حتى أحلامي، لذلك أصبحت أحلامي مشتتة مثلي:

- اليوم حلمت بكِ.
- بماذا حلمتَ؟

- كنتِ تقولين لي: أكرهك!

- هل ستحاسبني على حلم؟

- ربما ستقولينها لي يومًا ما.

صدفة غريبة أن أحلم بشيء كهذا، لم أكن أتخيل أن هذه الكلمة سوف تخترق أسوارنا، إنها كلمة قبيحة جدًا، حتى عندما وصفتِ بها حياتك:

- مهما تكلمت يا طارق فلن أستطيع أن أعبر عن درجة كرهي للحياة! لمَ لا أحس بالسعادة مثل الآخرين؟

- أنتِ تطردين السعادة، حتى أصغر الأشياء من الممكن أن تجعلك سعيدة لو أردتِ ذلك.

- مللت!

- لا يوجد شيء اسمه مللت، هذه ليست لعبة أو فستانًا حتى تملّيها، إنها الحياة!

الكره، تلك الكلمة القبيحة، لم أستطع أن أنطق بها حتى عندما احتجت إليها في لقائنا الأخير ذاك:

- إلى اللقاء يا حبيبي. الله وحده يعلم بكل الظروف، هل تكرهني حقًا؟

- إلى اللقاء ترف.

- ياه، ألهذه الدرجة تكرهني؟

- . . .

لم أكن أستطيع أن أقول لك كم أكرهك فعلًا، لم أستطع.

لأني أحبك.

لكن هناك خطأ، كيف ينتهي حبنا؟ لماذا صدّقت ذلك الشيخ الذي أتاني في المستشفى وقال إني سأتزوجك؟ هل جعلني الوهم أختلق أحداثًا لا أصل إليها؟ كل ما أنا متيقن منه هو أنني فقدتك إلى الأبد.

أيقنت أكثر عندما وصلتني رسالتك بعد مدة، تطلبين فيها الخلاص:

«إلى من ترك في روحي ندبة احتقار نفسي وانكسارها، إلى من زرع بذرة ذكراه دائمًا فما زالت تكبر، سامحني لأمارس فعل التنفس كأي إنسان آخر، لقد عاقبني الله بما يكفي لقتل الحياة فيّ، سامحني كي أنام دون أن يقرع الحزن باب قلبي ويؤنبه، لا أريد ردًا منك فأنا لا أستحق أي شيء، لكنني أتوسل إليك، سامحني كي أعيش فقط. سامحني».

هل كان الأمر يستحق كل هذا الألم؟

~ **طارق**

❀ ❀ ❀

كان الحزن يدور بي وأنا أقرأ رسالته تلك، الآن أدركت ذلك، لم يكن مقدرًا لهما الحب منذ البدء. أما الحزن فكان فتّاكًا، مثل سم عقرب، لسعة سريعة وينتهي الأمر، ثم يبقى ألم اللسعة طويلًا حتى يفتك بالمرء.

مرت في بالي صور كثيرة وأماكن لا أعرفها، أحداث وقصص، تجارب، أيام مليئة بالفوضى، لكني لم أعش حبًا مثل حب طارق وترف، لذا حزنت كثيرًا.

على نحوٍ غريب سمعت همسًا يقول لي: أنا لست موجودًا، أنا لم أُخلق إلا في خيالك، أنتِ أوجدِتني من أجلك لا من أجلي. أنتِ تقررين متى أظهر ومتى أختفي.

لوهلة عدت إلى الرسالة لأقرأها ولاحظت شيئًا مريبًا، كانت الرسالة مرسلة من بريدي الإلكتروني أنا! وكأن طارق قد دخل بريدي عنوة وأرسل رسالته منها! ارتعبت من الفكرة، وغضبت أيضًا، حاولت الاتصال

برقم جواله الذي سجلته عندي، وهذه المرة لم يكن مغلقًا.

تسمرت في مكاني، سمعت صوت جوال يرن في غرفتي، اقتربت لأعرف مصدر الصوت، ويا لهول ما وجدت حين فتحت درج الطاولة أمامي. كان جواله موجودًا لدي!

لم أفهم شيئًا مما يجري، التفت إلى المرآة المعلقة على الحائط ولم أرَ صورتي، كان وجهًا ذكوريًا، يغمزني بابتسامة، بدأت أهذي حتى سقطت على الأرض.

كان طارق!

## (16)

ربما لا تعرف يا طارق، لكن اليوم هو الحادي عشر من فبراير، يوم ميلادي. تسعة أشهر مرّت منذ آخر رسالة تلقيتها منك، لم يتحرّك فيها الزمن. لا أعلم من تكون، لكنك أكثر من أن تكون حقيقة، أنت أجمل من ذلك.

أرسلت قلبي ذات مرة في إثرك، ومن يومها لم يعد.

كلهم قالوا عني مجنونة، حتى الأطباء قرّروا ذلك، لكنني كنت أعقل من الجميع، كنت أقوى، كنت أجمل. لم تؤلمني كلماتهم بقدر ما آلمني غيابك.

تسعة أشهر، مثل مدة الحمل، كنت أحاول إجهاض ذلك الأنين والإحباط بداخلي، ما أثقل الأيام.

لم يكن من الممكن أن أُزهِر، أنا تلك الابتسامة التي تم زرعها في فيلم تراجيدي، لم أكن أنتمى إلى

هذا المكان، لذا بقيت شاذّة، غير منسجمة، أفسدت المشهد القاتم فأزاحوني تمامًا.

كنت أرغب بأن أقول إني أكن لك الكثير من المشاعر لكني لم أعد أراك ولم تعد ترد على رسائلي، حتى أنني حاولت الاتصال كثيرًا برقمك المسجل لديّ وكنت أجده مغلقًا.

أتعلم، اليوم أيضًا هو مولد مي زيادة، تلك الأديبة المتمردة التي عرفت جبران تسعة عشر عامًا دون أن تلتقيه مرة واحدة، أتراها تشبهني فعلًا في ذلك؟ حسنًا.. ما زلنا في أول عام، لكن قلبي بدأ يشيخ، وكأنني عرفتك منذ قرون، وكأن ما جمعنا في عام واحد يعادل كل ما عشته من أعوام. لقد عشت معً خيالك عمرًا كاملًا، تلك هي الحقيقة.

لا شيء يمكنك تقديمه لي في يوم ميلادي إلا أن تصلني منك رسالة، هل يمكن ذلك؟

ماتت أحرفي انتظارًا، مثل صحراء ميتة تنتظر حبات المطر، حتى أدركني الغيث، وجدت رسالتك اليوم، وجدتها تتدلى على نافذتي مثل عنقود عنب، بدأت الصحراء تخضرّ، بدأت روحي تتنفس.

وصلتني رسالتك بعد تسعة أشهر مثل مولودٍ جديد، لم أدرك أنه كان مولودًا ميتًا:

## ـ الرسالة الأخيرة ـ

تائهٌ أنا في دروب الحياة، كسيرٌ كمشرّد، يائسٌ كعجوز، ضعيفٌ كطفل.

لا أملك شيئًا، محروم أنا من كل شيء. وجهك، صوتك، كلماتك، كلها أشياء لا أملكها. كل ما أملكه حروف أكتب بها عنا، عن قصتنا المنسية.

اليوم، اعتبريني مثل حلم. لم يعد وجودي حقيقيًا، كنتُ ظلًا واختفى مع رحيل نورك.

ألم تشبعي غيابًا يا أسماء؟

هل تصل رسائلي؟

أعلم أنها لن تصل أبدًا.

كنت أبحث عن الحياة، ووجدتكِ أنتِ.

لم تكوني إنسية يومًا، لقد هبطتِ من الجنة. عثرت عليكِ في غصنٍ يتدلى من أغصان الفرح، وقطفتُك لي، قبل أن أعرف أنك ثمرة محرمة.

آه يا سيدتي، كم أنتِ محرّمة، وكم كان حبكِ مفخخًا، وكم كنت غبيًا عندما تصورت أنني حصلت عليك. أنتِ كل شيء، وأنتِ لا شيء، المطر والسراب، الحياة والموت، مذهلة تفاصيلك ومحيرة، محيرة جدًا بالنسبة إلى رجل مثلي يكره الفشل، ويعتقد أن بإمكانه حساب كل شيء قبل العبث والمجازفة.

لم يكن الحب يومًا معادلة حسابية، الحب هو أن تضع حياتك السابقة على الرف، أن تقفز في بحرٍ وتجدّف دون أن تعلم ما ينتظرك على الضفة الأخرى. أن تبدأ بكتابة رواية جميلة لكن نهايتها ستكتب بيدٍ أخرى ليست يدك. الحب هو أن تكون مستعدًا للموت.

لم أكن مستعدًا للموت.

نادي تبوك الأدبي
Tabuk Literary Club

# شبابيك في بلاد حزينة

رواية

عادل عبدالمجيد المالكي